محمود شلبي

حياة إسماعيل

دار الجيل
بيروت - لبنان

حیاۃ

حیاتِ اسماعیل

محمود شلبي

حياة إسماعيل

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ .. ﴾

" قرآن كريم "

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الإهداء

اللهم . . منك . . وإليك

محمود شلبي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله.. الذي لا إله إلا هو..

وأصلي وأسلم.. على المبعوث رحمة للعالمين..

وبعد..

لَوْ لم يكن من خصائص إسماعيل.. عليه السلام.. إلا ما أثنى ربه تبارك وتعالى عليه فقال في كتابه الكريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إسْمَاعِيلَ،

﴿إنَّهُ كانَ صادقَ الوَعْدِ،

﴿وَكانَ رَسولاً نَبِيًّا،

﴿وَكان يَأْمُرُ أهْلَهُ،

﴿بالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ،

﴿وَكانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾.

لو لم يكن له من الخصائص إلا هذا الثناء الجميل.. لكان حسْبه شرَفاً!!

فكيف وهو صاحب مقام:

﴿يَا أَبَتِ . . افعَلْ مَا تُؤمَرُ . . سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابرينَ.﴾؟!!

أم كيف وهو صاحب مقام:

﴿فَلمّا أسْلمَا . .

﴿وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ.﴾؟!!

أم كيف وهو الذي فَجَّرَ الله من أجله عَيْناً ليس كمِثْلِها عينٌ . . زَمزَمَ المباركة؟!!

أم كيف وقد جعل الله المكان الذي أُضجع فيه ليُذْبَح مَنسَكاً إلى يوم القيامة . . وهو «مِنَى»؟!!

أم كيف وقد جعل الله المكان الذي كانت تسعى فيه أُمُّه ـ عليها السلام ـ بحثاً عن الماء . . أو عن مُغيث . . جعله منسكاً إلى يوم القيامة . .

﴿إنَّ الصَّفَا وَالمرْوَةَ مِن شَعَائرِ اللَّهِ . .﴾؟!!

أم كيف وهو الذي رفع القواعد من البيت . . مُعيناً أباه إبراهيم . . عليهما السلام؟!!

أم كيف . . وهذه مسك الختام . . ومن ذريته كان أشرف الأنام . . محمدٌ . . رسولُ اللَّهِ . . صلى الله عليه وسلم . .

إسماعيل؟!!

لستُ أهلاً أن أتحدَّث عنه . .

﴿لكِنّا هُوَ اللَّهُ رَبي . . وَلا أُشْرِكُ بِرَبي أحَداً﴾!!

هو سبحانه يُعينني . . ويهديني . . ويُطعمني . . ويَسقيني . .

فاللهم . . ونحن في عَشْر ذي الحجة . . حيث يتواكب الملايين إلى بيتك المحرم . . لأداء مناسك الحجّ . . التي تُذَكّر الناس . . بما كان من

إسماعيل.. وما كان من الخليل.. عليهما السلام..

أسألك اللهم.. أن تفتح عليّ في هذا الكتاب.. فتحاً منك جميلاً..

وأن تجعله فَهماً جديداً.. يترقرق إلى أفئدة من الناس تهوي إليه!!

آمين.

١٠٤٨هـ

١٩٨٨م

محمود شلبي

ذلكم... إسماعيل؟!

مَنْ

مِن الناس.. لا يقشعر بدنه.. ولا يهتز كيانه.. ولا تدمع عيناه..

حين يذكر ذلك المشهد الذي ليس كمثلهِ مشهد في تاريخ البَشَر!!

غلام!!

صبوح الوجه.. بَسَام!!

يستسلم لأبيه.. الشيخ الجليل العظيم..

لِيَذْبَحَه؟!!!!

بل.. وراضياً!!

بل.. ومُسْلِماً وجهه لربه!!

بل.. والملائكة تضجُّ في السماء: الخليل يذبح وحيده!!

أيّ عين لا تبكي حين تذكر ذلك المشهد المقدّس؟!!

وأيّ فؤاد لا يتفطّر.. حين يتعطّر.. بتلك الذكرى العاطرة!!

إنَّ إسماعيل.. شيء وراء التصوّر.. ووراء طاقة العقول!!

فلو أنَّ أَحَدَنا.. أُمِرَ أن يذبح ابنه الصغير، لجُنَّ جنونه.. وانقلب على وجهه مُرْتَدّاً!!

لكن إبراهيم.. يرى رؤيا..

ويَقُصُّ رؤياه على صغيره..

فما كان من الغلام.. إلا أن قال:

﴿يا أَبَتِ..

﴿افعَلْ ما تُؤْمَرُ..

﴿سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.﴾!!

فأيّ غلام هذا!!

وكيف كان تركيباً!!

إنه إسماعيل..

ابن أبيه إبراهيم..

الذي كان منه.. خَيرُ الخَلْق أجمعين..

على نبيّنا.. وعلى آبائه.. إبراهيم.. وإسماعيل.. السلام..

دَعوَةُ... أبيه... إبراهيم؟!

ناداه

﴿رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحينَ.﴾

فأعطاه غلاماً ليس كمِثلِهِ غلام!!

المنادي إبراهيم.. عليه السلام..

والمنادَى.. الله!!

تجد ذلك مكنوناً في قوله تعالى:

﴿وقالَ إني ذاهِبٌ إلى رَبي سَيَهْدِينِ.

﴿رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحينَ.

﴿فبَشَّرْناهُ بغُلامٍ حَلِيمٍ.﴾!!

وكانت مِنّة.. من الحنّان المنّان..

يزيدها جمالاً على جمال.. أنَّ إبراهيم قد بلغه الكِبر.. ولا وَلَد له.. فهو أشوق ما يكون إلى غلام!!

﴿الحمْدُ للّهِ الذي وَهَبَ لي عَلى الكِبرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربي لسميعُ الدُّعاءِ.﴾!!

ولقد جاء إسماعيل.. فيه من موج إبراهيم.. حين نادَى..

كما جاءت مريم.. فيها من موج امرأة عِمْران.. حين نادت..

﴿إِذْ قالتِ امرأَتُ عِمرَانَ . .

﴿رَبِّ إني نذَرتُ لكَ ما في بَطني مُحَرَّراً . .

﴿فتَقَبّلْ مِني . .

﴿إنكَ أنتَ السّميعُ العليمُ.﴾!!

جاءت مريم . . عليها السلام . . مُخَلَّقَة من ذلك الموج الكريم . .

وكما جاء يحيى . . عليه السلام . . فيه من موج زكريا . . عليه السلام . . إذ نادى:

﴿هُنالِكَ دَعا زَكريا ربَّهُ

﴿قالَ رَبِّ هَبْ لي مِن لدُنكَ

﴿ذُرِّيةً طَيِّبَةً إنكَ سميعُ الدُّعَاءِ.﴾!!

أما موج إبراهيم حين سأل ربه أن يهب له من الصالحين . . فهو موج التوحيد، على أعلى ما يكون التوحيد . .

وأما موج امرأة عمران حين نذرت لربها ما في بطنها، فهو موج الإخلاص، على أعلى ما يكون الإخلاص . .

فجاءت مريم، على أعلى ما يكون الإخلاص . .

تجد ذلك مكنوناً في قوله تعالى:

﴿يا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ اصْطفَاكِ . .

﴿وَطهَّرَكِ . .

﴿واصْطفَاكِ عَلى نِسَاءِ العَالمِينَ.﴾!!

وأما موج زكريا حين سأل ربه . . فكان موج الحنان والتحنُّن . .

فجاء يحيى.. الصفة الغالبة عليه.. صفة الحنان..

تجد ذلك مكنوناً في قوله تعالى:

﴿وحَناناً من لدُنَّا وَزَكاةً وكانَ تقِيا.﴾!!

ماذا أريد أن أقول؟!

أريد أن أقول.. إنَّ إبراهيم.. عليه السلام.. حين دعا ربَّه:

﴿رَبِّ هَبْ لي منَ الصَّالحينَ﴾..

إنما صدرت عنه موجة عليا.. تتشعشع إلى ربها..

فاستجاب له ربه.. فيما سأل.. فكان إسماعيل.. عليه السلام..

وجاء إسماعيل يحمل في تكوينه صفات أبيه الخليل.. عليه السلام..

لماذا؟!

لأنه دعوة أبيه إبراهيم!!

ثُمَّ كان... مِن إسماعيل.. خَيرُ خَلقِ اللّهِ ﷺ؟!

وكان

إسماعيل.. عليه السلام..

وعاش ما شاء الله، ثم مات..

وتتابعت من ذريته ما شاء الله من قبائل العرب..

ثم كان النبيّ ﷺ.. من نسل إسماعيل..

وها هو النسب النبوي الشريف، يتتابع.. حتى ينتهي إلى إسماعيل..

قال ابن الأثير:

«محمّد..

«ابن عبد الله..

«ابن عبد المطّلب..

«ابن هاشم..

«ابن عبد مناف..

«ابن قُصَيّ..

«ابن كِلاب..

«ابن مُرَّة..

«ابن كَعْب..

«ابن لُؤَيّ . .

«ابن غالب . .

«ابن فِهر . .

«ابن مالك . .

«ابن النَّضر . .

«ابن كِنانة . .

«ابن خُزَيمة . .

«ابن مُدْركة . .

«ابن إلياس . .

«ابن مُضَر . .

«ابن نِزَار . .

«ابن مَعَدّ . .

«ابن عدنان . .».

ثم يقول ابن الأثير:

«فنسب النبيّ ﷺ . . لا يختلف الناسبون فيه إلى مَعَدّ بن عدنان ـ على ما ذكرتُ ـ

«ويختلفون بعد ذلك اختلافاً عظيماً لا يحصل منه على غرض . .

«فتارة يجعل بعضهم بين عدنان وبين إسماعيل ـ عليه السلام ـ أربعة آباء . .

«ويجعل آخر بينهما أربعين أباً . .»

أما ابن هشام فيتفق في سيرته النبوية مع ابن الأثير.. حتى قوله «ابن عَدْنان»..

ثم يمضي ابن هشام.. في تسلسل النسب الشريف بعد «عَدْنان».. فيقول:

«ابن أُدّ..

«ابن مُقَوّم..

«ابن ناحور..

«ابن تَيرَح..

«ابن يَعْرُب..

«ابن يَشْجُب..

«ابن نابت..

«ابن إسماعيل..

«ابن إبراهيم.. خليل الرحمن..»

***

أقول.. لو لم يكن في تاريخ إسماعيل، عليه السلام، إلا هذه.. لكانت كافية أن ترفعه رفعاً عظيماً..

أنَّ رسولَ الله ﷺ.. من ذرّيته..

فهو محمَّد.. بن عبد اللّه.. بن عبد المطّلب.. بن إسماعيل.. بن إبراهيم!!

حياة إسماعيل.. كما رواها.. الإمام البخاريّ؟!

أخرج

البخاريّ، في صحيحه:

«عن سعيدِ بن جُبَيرٍ.. قال ابنُ عبّاسٍ:

«أوّلَ ما اتخذَ النساءُ المِنْطَقَ.. مِنْ قِبَلِ أُمّ إسماعيلَ..

«اتخَذَتْ منطقاً، لتُعَفّيَ أثَرَها على سارَةَ..

«ثمّ جاءَ بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ..

«وهي تُرْضِعُهُ..

«حتى وضعَهما عندَ البيتِ، عندَ دَوْحَةٍ فوقَ زَمزَمَ.. في أعلى المسْجِدِ..

«وليْسَ بمكّةَ يومئذٍ أحَدٌ..

«وليس بها ماءٌ!!

«فوضَعَهما هنالِكَ..

«ووَضَعَ عندَهما جِراباً فيهِ تَمْرٌ..

«وسِقَاءً فيه ماءٌ!!

«ثم قَفّى إبراهيمُ مُنطلِقاً!!

«فتبعَتْهُ أمُّ إسماعيلَ فقالت: يا إبراهيمُ، أينَ تذهَبُ، وتَترُكنا بهذا

الوادِي الذي ليسَ فيهِ إنسٌ ولا شيءٌ؟!!

«فقالَتْ لهُ ذلكَ مرَاراً!!

«وَجعلَ لا يَلتفِتُ إليها!!

«فقالَتْ لهُ: آللهُ الذي أمرَكَ بهذا؟

«قالَ: نَعَمْ..

«قالتْ: إذَنْ لا يُضَيِّعَنا!!

«ثمَّ رَجعَتْ..

«فانطَلَقَ إبراهيمُ، حتى إذا كان عندَ الثَّنِيَّةِ حيث لا يَرَوْنَهُ.. استقبلَ بوجههِ البَيتَ..

«ثُمَّ دعا بهؤلاءِ الكلماتِ.. ورَفَعَ يَدَيهِ، فقال:

﴿ربِّ إنّي أسكَنتُ من ذُرِّيتي بِوادٍ غير ذي زَرعٍ عِند بيتِكَ المُحرَمِ.. حتى بلغ.. يَشكُرُونَ..﴾

«وجَعَلَتْ أُمُّ إسماعيلَ تُرْضِعُ إسماعيلَ، وتَشْرَبُ من ذلكَ الماءِ..

«حتى إذا نَفِدَ ما في السّقاءِ، عَطِشَتْ.. وعَطِشَ ابنُها!!

«وجَعلتْ تَنظُر إليه يَتلوّى!!

«أوْ قال: يَتلبّطُ!!

«فانطلقَتْ.. كرَاهِيةَ أنْ تَنظُرَ إليهِ..

«فوجَدَتِ الصّفا.. أقرَبَ جَبلٍ في الأرضِ يَليها..

«فقامَتْ عليهِ..

«ثُمَّ استَقبَلتِ الوَادِيَ.. تَنظرُ: هَلْ تَرَى أحداً؟

«فلمْ تَرَ أحَداً!!

«فهبَطتْ من الصَفا..

«حتى إذا بَلغتِ الوادِيَ.. رَفعتْ طَرَفَ دِرْعِها..

«ثُمّ سَعتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ..

«حتى جاوَزَت الواديَ..

«ثمّ أتَتِ المَرْوَة..

«فقامَتْ عليها.. ونَظرَتْ: هَلْ ترى أحَداً؟

«فلمْ تَرَ أحَداً!!

«فَفعلتْ ذلك سَبعَ مَرَاتٍ..

«قالَ ابنُ عَباسٍ: قالَ النبيُّ ﷺ.. فذلكَ سَعيُ الناس بَينهما..

«فلمّا أشرَفَتْ على المرْوَةِ.. سَمعتْ صَوتاً..

«فقالَتْ: صَه..

«تُريدُ نَفْسها..

«ثمّ تَسَمّعتْ.. فسمعتْ أيضاً..

«فقالتْ: قَد أسمعتَ.. إنْ كانَ عندَكَ غواثٌ..

«فإذا هي بالمَلكِ.. عِندَ مَوْضعِ زَمزَمَ!!

«فَبَحَثَ بعقِبهِ..

«أوْ قالَ: بجناحِه..

«حتى ظَهرَ الماءُ!!

«فجَعلتْ تُحوِّضهُ.. وتقولُ بيدِها هكذا..

«وجَعلتْ تَغرفُ منَ الماءِ في سِقائِها..

«وهوَ يَفورُ بَعدَما تَغرفُ!!

«قالَ ابن عباسٍ: قال النبيُّ ﷺ..: يرْحَمُ اللّٰهُ أُمَّ إسماعيلَ.. لوْ تَركتْ زَمزَمَ..

«أو قالَ: لَوْ لَمْ تَغرفْ منَ الماءِ..

«لكانَتْ زَمزَمُ عَيناً مَعيناً..

«قالَ: فشربَتْ، وأرْضَعتْ ولدَها..

«فقالَ لها المَلَكُ: لا تَخافوا الضيعةَ..

«فإنّ ها هنا بَيْتَ اللّٰهِ..

«يَبنيهِ هذا الغلامُ، وَأبوهُ..

«وإنّ اللّٰهَ لا يُضَيعِ أهلهُ!!

«وكانَ البيت مُرتَفعاً منَ الأرضِ كالرّابيةِ، تَأتيهِ السُّيول، فتأخذُ عن يمينهِ وشِمالِهِ..

«فكانَتْ كذلكَ، حتى مَرّتْ بهمْ رُفقةٌ منْ جرْهُمَ.. أو أهل بيتٍ منْ جُرْهُم.. مُقبِلينَ منْ طريقِ كدَاءٍ، فنزلوا في أسفَل مَكّةَ..

«فَرَأَوْا طائراً عائِفاً..

«فقالوا: إنّ هذا الطائرَ لَيَدورُ على ماءٍ، لَعَهْدنا بهذا الوادِي وما فيهِ ماءٌ!!

«فأرسَلوا جَرياً، أوْ جَريّينِ..

«فإذا هُمْ بالماءِ!!

«فرَجَعوا.. فأخبروهُم بالماءِ..

«فأقبلوا..

«قالَ: وأُمُّ إسماعيلَ عندَ الماءِ..

«فقالوا: أتأذَنِينَ لنا أنْ نَنزلَ عِندَكِ؟

«فقالَتْ: نَعمْ، ولكِنْ لا حَقَّ لكُم في الماءِ..

«قالوا: نَعَمْ..

«قال ابن عَباسٍ: قالَ النبيُّ ..ﷺ: فألْفَى ذلكَ أُمَّ إسماعيلَ.. وهيَ تُحبُّ الأُنسَ..

«فنزَلُوا..

«وأرْسَلوا إلى أهلِيهِمْ، فنزَلوا مَعَهمْ!!

«حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهمْ..

«وشَبَّ الغلامُ..

«وتَعلَّمَ العرَبيَّةَ مِنهمْ..

«وأنفَسَهُمْ، وأعجبَهمْ حينَ شَبَّ..

«فلما أدْرَكَ، زوَّجوه، امرَأةً مِنهم..

«وماتَتْ أُمُّ إسماعيلَ..

«فجاءَ إبراهيم، بَعْدَما تَزوَّجَ إسماعيل... يطالِع تركتَهُ..

«فلمْ يَجدْ إسماعيلَ..

«فسألَ امرأتَه عنه..

«فقالَت: خَرج يَبتغي لنا..

«ثمَّ سَألَها عن عَيشِهم وَهيئتِهِمْ..

«فقالَتْ: نَحنُ بِشَرٍّ.. نَحن في ضِيقٍ وشِدَّةٍ..

«فشكَتْ إليهِ..

«قال: فإذا جاء زوْجكِ، فاقرَئي عليهِ السلامَ، وقُولي له.. يُغيِّرُ عَتبةَ بابِه..

«فلمّا جاء إسماعيلُ، كأنَّه آنسَ شَيئاً..

«فقالَ: هل جاءكمْ مِنْ أحَدٍ؟

«قالَت: نَعمْ.. جاءَنا شيخٌ.. كذَا وكذا.. فسألنا عنك فأخبرتُهُ.. وسألني: كيفَ عَيشنا؟ فأخبرْتُهُ أنا في جَهدٍ وشِدَّةٍ..

«قال: فهلْ أوصَاكِ بشيءٍ؟

«قالتْ: نَعمْ.. أمرَني أنْ أقرأ عليكَ السَّلامَ.. ويقول غيِّر عَتبَةَ بابِكَ..

«قالَ: ذاكَ أبي..

«وقَدْ أمَرَني أنْ أُفَارِقَكِ.. الحقِي بأهلِكِ.. فطلَّقها..

«وتَزَوَّجَ منهم أُخرى..

«فلَبث عنهم إبراهيم... ما شاء الله.. ثم أتاهُم بَعد..

«فلمْ يَجده..

«فدَخل على امرأتِهِ.. فسألها عَنهُ..

«فقالت: خَرجَ يَبتغي لَنا..

«قال: كيفَ أنتمْ؟

«وسألَها عن عَيشهم وهيئتهم؟

«فقالت: نحن بخيرٍ وَسعةٍ..

«وأثنتْ على اللهِ..

«فقال: ما طعامكمْ؟

«قالت: اللحمُ..

«قال: فما شرابكمْ؟

«قالتِ: الماء..

«قال: اللهمَّ بارِكْ لَهم في اللحمِ والماءِ..

«قال النبيُّ.. ﷺ: ولَم يكُنْ لهم يَومئذٍ حَبٌّ.. ولو كانَ لهمْ.. دَعا لهم فيهِ..

«قال: فهما لا يَخلو عليهما أحَدٌ بغيرِ مَكَّةَ إلاَّ لم يوافِقاه..

«قال: فإذا جاء زوجكِ.. فاقرئي عليهِ السلامَ.. ومُريهِ.. يثبت عَتبةَ بابِهِ..

«فلمَّا جاء إسماعيلُ.. قال: هل أتاكم مِن أحَدٍ؟

«قالَتْ: نَعم.. أتانا شيخٌ، حَسن الهيئةِ.. وأثنتْ عليه، فسألني: كيف عَيشنا؟ فأخبرتهُ أنَّا بخيرٍ..

«قال: فأوْصَاكِ بشيءٍ؟

«قالتْ: نَعمْ.. هو يَقْرأُ عليك السلام، ويَأمرك أن تثبت عَتبةَ بابِك..

«قال: ذاك أبي.. وأنتِ العتبَةُ.. أمَرَني أن أمسِكَكِ..

«ثمَّ لَبث عنهم ما شاء الله..

«ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يَبري له نَبلاً، تحت دوحة قريباً مِن زَمزمَ..

«فلما رآه، قام إليهِ..

«فَصنعا كما يَصنعُ الوالدُ بالوَلَدِ، والوَلَد بالوالدِ..

«ثمَّ قال: يا إسماعيلُ، إنَّ الله أمَرَني بأمرٍ..

«قال: فاصنع ما أمرَكَ ربُّك..

«قال: وتعينني؟

«وأعِينك..

«قال: فإن الله أمَرني أن أبنيَ.. ها هنا بَيْتاً..

«وأشَار إلى أكمةٍ مرْتَفِعَةٍ على ما حَوْلَها..

«قال: فعِند ذلِكَ، رفَعا القواعِدَ مِنَ البَيتِ..

«فجعل إسماعيل يَأتِي بالحجارةِ..

«وإبراهيمُ يَبني..

«حتى إذا ارْتَفع البناء..

«جاء بهذا الحجرِ، فوضَعه له..

«فقامَ عليهِ..

«وهُو يَبني..

«وإسماعيل يناوِلهُ الحِجارةَ..

«وهما يَقولانِ:

«ربَّنا تَقبَّل مِنا إنكَ أنتَ السميعُ العليم..

«قال: فجعلا يَبنِيان، حتى يَدورا حوْل البيتِ، وهما يقولانِ:

﴿ربَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا..

﴿إنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾

وأخرج البخاري في صحيحه أيضاً:

«عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ

«عن النبيِّ.. ﷺ.. قال:

«يَرحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ..

«لوْلا أنها عجِلتْ لكانَ زَمزَمُ عَيناً مَعِيناً»

(رحم الله أم إسماعيل) هي هاجر، وقصتها ملخصة..

(أن سارة زوج إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حلفت أن لا تساكن هاجر..

(فحملها إبراهيم.. وإسماعيل معها، إلى مكة على البراق، ومكة إذ ذاك عضاه وسلم وسمر، وموضع البيت يومئذ ربوة، فوضعهما موضع الحِجْر.

(ثم انصرف.. فاتبعته هاجر فقالت: إلى من تكلنا، فالله أمرك بهذا؟

(قال: نعم..

(فقالت: إذن لا يضيعنا..

(ثم انصرف راجعاً إلى الشام..

(وكان مع هاجر شَنّة (قربة يابسة) وقد نفد، فعطشت وعطش الصبي..

(فقامت وصعدت الصفا، فتسمعت هل تسمع صوتاً، أو ترى إنساناً؟

(فلم تسمع صوتاً، ولم تر أحداً..

(ثم ذهبت إلى المروة.. فصعدت عليها.. وفعلت مثل ذلك..

(فلم تزل تسعى بينهما، حتى سعت سبع مرات..

(وأصل السعي من هذا..

(ثم سمعت صوتاً.. فجعلت تدعو

«اسمع ايل»

(يعني اسمع يا الله.. قد هلكتُ وهَلَك مَن معي!!

«فإذا هي بجبريل ـ عليه السلام ـ فقال لها: مَن أنتِ؟

«قالت: سرية إبراهيم.. تركني وابني ها هنا..

«قال: إلى مَن وكلكما؟

«قالت: إلى الله تعالى..

«قال: وكلكما إلى كافٍ..

«ثم جاء بهما إلى موضع زمزم..

«فضرب بعقبه ففارت عيناً..

(فلذلك يقال لزمزم.. ركضة جبريل عليه السلام..

(فلما نبع الماء، أخذت هاجر شَنّتها، وجعلت تستقي فيها تدخره، وهي تفور..

«فقال رسول الله.. ﷺ:

«يرحمُ الله أُمَّ إسماعيلَ، لولا أنها عَجِلتْ، لكانتْ زمزمُ عيناً مَعِيناً..

«أي سائلاً جارياً على وجه الأرض».

***

وفي رواية أخرى، للبخاريّ في صحيحه كذلك:

عن ابنِ عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال:

«لمَّا كان بين إبراهيم وبينَ أهلهِ ما كان. .

«خرج بإسماعيل وأُمّ إسماعيلَ، ومعهم شَنةٌ[1] فيها ماءٌ. .

«فجعلَتْ أمُّ إسماعيل تشرب منَ الشنةِ، فَيدِرُّ لبنها على صبيّها. .

«حتى قَدِمَ مكَّةَ، فَوَضعها تحت دوْحَةٍ

«ثمّ رَجع إبراهيمُ إلى أهلهِ. .

«فاتَبَعتْه أمُّ إسماعيل، حتى لمَّا بلَغوا كداءً نادته مِن ورائِهِ:

«يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟

«قال: إلى الله. .

«قالت: رضيتُ باللّهِ. .

«قال: فرجَعت فجعلت تشرب مِن الشَّنَّةِ، ويَدِرُّ لبنها على صَبيّها. .

«حتى لمّا فَني الماء قالَت: لو ذَهبتُ فنظرتُ لعلي أحسُّ أحَداً؟

«قال: فذَهبتْ فصعِدَتِ الصفا. .

«فَنظرَت ونظرت، هل تُحسُّ أحداً؟

«فلمَّا بَلَغتِ الوادي سَعتْ. .

«وأتت المَروةَ. .

«ففعلتْ ذلك أشواطاً. .

«ثمَ قالت: لو ذَهبتُ فنظرت ما فَعلَ؟

---

(١) قربة ماء. . .

«تَعني الصبيّ . .

«فذَهبتْ، فنظرت . . فإذا هُوَ على حالِهِ، كأنه ينشغ للموْتِ . .

«فلم تقِرّهَا نفْسها . . فقالت: لو ذَهبت فَنظرْت، لَعلي أُحِسُّ أحَداً . .

«فَذَهبتْ، فَصعدَت الصَّفا . .

«فنظرَت، ونظرت، فلم تُحسّ أحداً . .

«حتى أتمّت سبعاً[1] . .

«ثمّ قالت: لو ذَهبت فنظَرت ما فعل؟

«فإذا هيَ بصوْتٍ!!

«فقالت: أغِث، إن كان عِندَك خَيرٌ . .

«فإذا جبريلُ!!

«قال: فقال بِعقِبِهِ هكذَا . .

«وغَمَز عقبه على الأرضِ . .

«قال: فانبثق الماء!!

«فدهشت أمّ إسماعيل!!

«فجعلتْ تَحفرُ . .

«قال: فقال أبو القاسم . . ﷺ: لو تَركته كان الماء ظاهِراً . .

---

(١) هاهنا إشارة جميلة . . . اقتبستها حين رأيت وأنا أسعى بين الصفا والمروة . . . أثناء أدائي للحج والعُمرة . . . جعلت أنظر إلى وجوه الساعين والساعيات . . . فوجدتهم يبكون ويبكون . . . فعلمت هنالك أن هاجر كانت تبكي وهي تسعى بين الصفا والمروة . . . هل تُحِسُّ أحداً . . . ولا أحد هناك . . . فبقيت موجة بكائها سارية في المكان المقدس . . . وهذا هو سر بكاء من سعى بينهما . . .

«قال: فجعلَت تشربُ من الماءِ.. ويَدِرُّ لبنها على صبيِّها..

«قال: فمرَّ ناسٌ من جُرْهُمَ ببطنِ الوادي، فإذا هُم بطيرٍ، كأنهم أنكروا ذلك..

«وقالوا: ما يكون الطير إلاّ على ماءٍ!!

«فبعثوا رسولَهم، فنظر، فإذا هم بالماء.. فأتاهم فأخبرَهم..

«فأتوا إليها، فقالوا: يا أمّ إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون مَعكِ؟ أو نسكنَ معكِ؟

«فبلَغ ابنها، فنكح فيهمِ امرأةً..

«قال: ثمّ إنه بدا لإبراهيم.. ﷺ.. فقال لأهلهِ: إني مطّلعٌ تركتي...

«قال: فجاء، فسلَّم.. فقال: أينَ إسماعيل؟

«فقالت امرأته: ذَهَب يَصيد..

«قال: قولي له إذا جاء غيِّر عَتَبةَ بَابِكَ..

«فلما جاء أخبرته..

«قال: أنتِ ذاك، فاذْهبي إلى أهلكِ..

«قال: ثم إنه بَدا لأبراهيم.. فقال لأهلهِ: إني مطّلعٌ تركتي..

«قال: فجاء.. فقال: أين إسماعيلُ..

«فقالت امرأته: ذَهب يَصيد..

«فقالت: ألا تَنزل فتَطعم وتشرب؟

«فقال: وما طعامكم وما شرابكم؟

«قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء..

«قال: اللهمّ باركْ لهم في طعامهم وشرابهمْ..

«قال: فقال أبو القاسم ﷺ.. بَركةٌ بدعوة إبراهيم ..ﷺ..

«قال: ثم إنّه بَدا لإبراهيم.. ﷺ.. فقال لأهله: إني مطلعٌ تركتي..

«فجاء.. فوافق إسماعيل من وراء زَمزَمَ.. يصْلح نبلاً له..

«فقال: يا إسماعيلُ.. إنَّ ربّك أمرَني أن أبني له بيتاً..

«قال: أطعْ ربك..

«قال: إنه أمَرني أنْ تعينني عليهِ..

«قال: إذَن أفعل ـ أو كما قال ـ

«قال: فقاما.. فجعلَ إبراهيمُ يَبني، وإسماعيل يناوِله الحجارةَ..

«ويقولانِ: **﴿ربَّنا تَقَبّل مِنَّا إنَّكَ أنتَ السميعُ العَلِيمُ﴾**..

«قال: حتى ارتفع البناء..

«وضَعُف الشيخ على نَقْل الحجارة..

«فقام على حَجر المقام..

«فجعل يناوِله الحجارةَ.. ويقولانِ **﴿رَبَّنا تَقبَّل منّا إنّكَ أنتَ السمِيعُ العَليمُ﴾**.

***

(لما كان بين إبراهيم وبين أهلهِ ما كان) أي من جنس الخصومة المعتادة بين الضرائر..

(كأنهُ ينشغ) وهو الشهيق من الصدر حتى كاد يبلغ به الغشي.. أي

يعلو نَفَسه كأنه شهيق من شدة ما يرد عليه...

(فلم تقرّها نفسها) من الإقرار في المكان.

(فقال بِعَقبه) أي أشار به..

(فانبثق) أي تفجّر.

(تحفر) ويروى (تحفن) أي تملأ الكفين..

(بدا) أي ظهر لإبراهيم التوجه إلى هاجر..

(بَركةٌ) أي هي بركة.. أو زمزم بركة، أو في طعام مكة وشرابها بركة..).

***

أقول.. هذه روايات الإمام البخاري، في صحيحه.. عن حياة إسماعيل، عليه السلام..

هذه مقدمة الأنباء..

وإليكم تفصيل الأنباء!!

﴿واذكر... في الكتاب... إسماعيل﴾؟!

إذا

قال الله..

﴿وَاذْكُر في الكِتابِ إسماعيلَ..﴾..

كانت الإشارة من هذا... ضَع في قائمة الشرف.. وسجل الخلود.. هذا الذي اسمه إسماعيل!!

لماذا إسماعيل بالذات؟!

لأنه

﴿كانَ صادِقَ الوَعْدِ..﴾!!

أعلى صفاته العليا!!

وَعَد أباه

﴿سَتَجدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ منَ الصَّابِرينَ﴾

فوفى.. وأسلم نفسه الشريفة... ليُذبَح!!

فمن هو هذا الجميل الجليل الذي اسمه إسماعيل؟!

على الكبر؟!

قال تعالى:

﴿الحمد لِلَّهِ الَّذي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبر إسماعيلَ وإسْحَاقَ إنَّ رَبِّي

لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

(الحمْدُ لله الذي وهب لي على الكبر) أي مع كبر سني ويأسي عن الولد

والتقييد بذلك استعظاماً للنعمة، وإظهاراً لشكرها..

(إسماعيل وإسحاق) روي أنه وهب له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة

ووهب له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة.

(إن ربي) ومالك أمري.

(لسميع الدعاء) أي لمجيبه، فالسمع بمعنى القبول والإجابة مجاز، كما في سمع الله لمن حمده.

يتوسل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه كأنه عليه السلام يقول: اللهم استجب دعائي في حق ذريتي في هذا المقام، فإنك لم تزل سميع الدعاء، وقد دعوتك على الكبر أن تهب لي ولداً، فأجبت دعائي، ووهبت لي إسماعيل وإسحاق.

وهذا النص يؤكد أن إبراهيم ولد له بعد أن بلغ الكبر..

وأن الله وهبه إسماعيل أولاً..

ثم إسحاق ثانياً..

لأن إبراهيم صاحب التجربة يسجلها بنفسه، ويحمد الله تعالى عليها بنفسه

ولأن الله هو الذي يقصها علينا في كتابه، ومن أصدق من الله قيلا؟!

إسماعيل؟!

قال تعالى:

﴿واذكُرْ فِي الكِتابِ إسماعيلَ، إنَّهُ كانَ صادقَ الوَعْدِ وكانَ رسولاً نبيًا، وكانَ يأمُرُ أهلَهُ بالصَّلاةِ، والزكاةِ، وكانَ عندَ ربِّهِ مَرْضِيًا﴾ [مريم ٥٤ و٥٥]

(واذكر في الكتاب) في القرآن.

(إسماعيل) ابن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ

وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لإبراز كمال الاعتناء بأمره بإيراده مستقلاً

(إنه كان صادق الوعد) وإيراده ـ عليه السلام ـ بهذا الوصف لكمال شهرته بذلك.

وناهيك في صدقه أنه وعد أباه الصبر على الذبح بقوله ﴿ستَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابرينَ﴾ فوفى!!

قيل: لا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى هذا الوعد والصدق فيه من أعظم ما يتصور!!

(وكان رسولاً نبياً) فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة مستقلة، فإن أولاد إبراهيم ـ عليهم السلام ـ كانوا على شريعته.

وإسماعيل ـ عليه السلام ـ بعث إلى جُرْهم بشريعة أبيه.

(وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) اشتغالاً بالأهم، وهو أن يبدأ الرجل بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقرب الناس إليه.

قال الله تعالى:

﴿وأنذِرْ عشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ ـ وأمُر أهلكَ بالصَّلاة ـ قُوا أنفُسَكُمْ وَأهلِيكُم ناراً﴾ . .

وقال الحسن: المراد بأهله أمته، لكون النبي بمنزلة الأب لأمته.

(وكان عند ربه مرضياً) لاستقامة أقواله وأفعاله.

ذلك هو إسماعيل . .

شخصية أبرز صفاتها . . . صادق الوعد . . رسول . . نبيّ . . يأمر أهله بالصلاة . . والزكاة . . . مرضي عند ربه . . .

وماذا من الكمال بعد هذا؟

وإسماعيل هذا . . يكفيه ـ فوق هذه الصفات جميعاً ـ أنه جد نبينا محمد . . ﷺ . . والحلقة التي تربط محمداً وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

غلام حليم

قال تعالى:

﴿ربِّ هبْ لي منَ الصَّالِحينَ. فبَشَّرْناهُ بغُلامٍ حليمٍ﴾ [الصافات ١٠٠ ـ ١٠١].

(رب هب لي من الصالحين) بعض الصالحين، يعينني على الدعوة، والطاعة، ويؤنسني في الغربة.

والتقدير: ولداً من الصالحين.

(فبشرناه بغلام حليم) ظاهر في أن ما بشر به عين ما استوهبه . . .

ولقد جمع بهذا القول بشارات . . .

أنه ذكر لاختصاص الغلام به . . .

وأنه يبلغ...

وأنه يكون حليماً.. وأي حلم مثل حلمه؟!

عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال **﴿ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين﴾**.. فما ظنك به بعد بلوغه!

وقيل: ما نعت الله تعالى نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم عليهما السلام.

وحالهما المذكورة فيما بعد تدل على ما ذكر فيهما.

إن إبراهيم يدعو ربه.. وكان ذلك بعد أن مضى عليه عشرون عاماً في الشام.. بعد هجرته عن قومه...

يدعوه أن يهب له ولداً صالحاً...

يرث هذه الدعوة.. هذه الكلمة.. ويتم إبلاغ هذه الرسالة...

وإن الله تعال يبشره أنه استجاب لدعائه، وأنه سيهبه غلاماً.. حليماً.. أخص صفاته الحلم!!

مِنَ الأخيار؟!

قال تعالى:

﴿واذكُرْ إسماعيلَ واليَسَعَ، وذا الكِفْل، وكلٌّ مِنَ الأخيار، هذا ذِكر،،﴾ [ص ٤٨ ـ ٤٩].

(واذكر إسماعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه، وأخيه، اعتناء بشأنه، من حيث لا يشرك العرب فيه غيرهم.

أو للإشعار بعراقته في الصبر، الذي هو المقصود بالتكرار.

(وكلٌّ من الأخيار) أي وكلهم من المشهورين بالخيرية.

(هذا ذكر) أي شرف لهم، وشاع الذكر بهذا المعنى...

والمراد في ذكر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شرف عظيم لهم...

إن إسماعيل قمة في الخير.. إنه يقف في ذروة الأخيار...

إن الله يشهد بذلك.. وكفى بالله شهيداً!

بداية النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم؟!

قال تعالى:

﴿ولقَدْ أرسَلنا نوحاً، وإبراهيمَ، وجَعلنا في ذرِّيتهما النبوَّة والكتابَ..﴾ [الحديد: ٢٦].

(وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتاب.

إن إسماعيل هو بداية النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم..

إنه الإشعاع الأول في تلك الذرية..

إنه الولد البكر.. وإنه أول من استنبئ من ذرية إبراهيم..

وأول من كان رسولاً نبياً منها..

لماذا طلب إبراهيم الوَلد؟

رجل يقف على قمة المائة من عمره..

قضى حياته من صغره داعياً إلى الله بإذنه..

وامرأته إلى جواره... تؤمن به، وتهاجر معه أينما ذهب..

وتلفت إبراهيم من حوله فوجد نفسه وحيداً..

ونظر إلى هذه الدعوة التي يحملها، فأحس بضرورة وجود من يتابع السير بها من بعده..

ونظر.. فأدرك أنه هو القلب السليم، الذي اصطفاه رب العالمين..

هنالك.. رغب أن يكون الذي يحمل هذه الرسالة من ذريته..

ولكن هناك النواميس العامة.. تمنع ذلك..

إنه شيخ كبير يناهز المائة.. فكيف يطمع الآن فيما لم يتحقق له في شبابه؟!

وهذه زوجه عجوز، عقيم. فكيف تطمع فيما لم يقع لها في شبابها؟!

هناك استحالة طبيعية.. هناك نواميس تمنع ذلك..

ولكن إبراهيم الذي يعلم من الله ما لا نعلم..

يعلم أن الذي خلق تلك النواميس، هو الذي يملك تغييرها وتحويلها..

هنالك اتجه إبراهيم إليه..

اتجه إليه مباشرة..

اتجه إلى من بيده تغيير النواميس وتبديلها..

وناداه:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾..

فماذا كان جواب ربه؟

﴿فَبَشَّرناهُ بِغُلامٍ حليمٍ﴾..

إن إبراهيم اتجه إليه مباشرة.. فكان الله عند ظنه!!

كيف كانت القصة؟

قال ابن عباس:

«أول ما اتخذَ النساءُ المنطقَ، من قبل أُمّ إسماعيل

«اتخذَتْ منطقاً، لتعفّيَ أثرَها على سارَةَ

«ثم جاء بها إبراهيمُ، بابنِها إسماعيل وهي ترضِعُهُ، حتى وَضعَهما عند البيتِ، عند دَوْحةٍ، فوقَ زمْزمَ في أعلى المسجد

«وليس بمكةَ يومئذٍ أحَدٌ وليسَ بها ماءٌ

«فوضعَهُما، هنالِك.

«ووضَعَ عندَهما جِراباً، فيه تمرٌ. وسِقاءً فيه ماءٌ

«ثم قفّى إبراهيمُ مُنطلِقاً..» [البخاري]

هذه قطعة.. من ذلك الحديث.. الخالد.. الجامع.. الذي أورده البخاري في صحيحه.. يتلألأ كما يتلألأ النور في آفاق الأبد..

ولندخل قليلاً.. قليلاً.. إلى أنواره..

«أول ما اتخذ النساء المنطق» ما يشد به الوسط..

أي اتخذت أُم إسماعيل منطقاً، وكان أول الاتخاذ من جهتها..

ومعناه أنها تزيّت بزي الخدم إشعاراً بأنها خادمها، يعني خادم سارة، لتستميل خاطرها، وتجبر قلبها..

وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم..

فحملت منه بإسماعيل..

فلما ولدته، غارت منها، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء!

فاتخذت هاجر منطقاً، فشدت به وسطها، وجرّت ذيلها، لتخفي أثرها على سارة.

وهو معنى قوله (لتعفي أثرها) أي لأن تعفي: يقال عفا على ما كان منه إذا أصلح بعد الفساد..

ويقال إن إبراهيم شفع فيها، وقال لسارة: حللي يمينك بأن تثقبي أذنيها، وتخفضيها.. فكانت أول من فعل ذلك.

(ثم جاء بها إبراهيم) قيل: كان تطوى له الأرض..

وأنا أقول: لا داعي لتكلف هذا.. إنما جاء بها إبراهيم من الشام حيث كان يقيم، إلى الموضع الذي به زمزم اليوم بالحجاز.. في رحلة طبيعية.. قطع فيها أياماً وليالي ككل مسافر..

(وهي ترضعه) أي هاجر ترضع إسماعيل..

لقد كان إسماعيل رضيعاً.. وكانت أمه هاجر ترضعه في تلك الرحلة الطويلة..

(عند البيت) عند موضع البيت، لأنه لم يكن في ذلك الوقت بيت ولا بناء.

(فوضعهما) عند البيت.

(عند دوحة) هي الشجرة العظيمة.

(فوق زمزم) أي فوق المكان الذي نبعت فيه بعد ذلك زمزم لأنها لم تكن موجودة يومها..

(في أعلى المسجد) أي في أعلى مكان المسجد، لأنه لم يكن حينئذ بني المسجد.

(جراباً) هو الذي يتخذ من الجلد يوضع فيه الزواد.

(وسقاء) هو قربة صغيرة.

وفي رواية (شَنَّة) هي القربة العتيقة اليابسة.

(ثم قفى) أي ولّى، يعني ولّى راجعاً إلى الشام.

وفي رواية ابن إسحاق: فانصرف إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى أهله بالشام، وترك إسماعيل وأمه عند البيت.

(منطلقاً) أي إلى الشام..

لقد بدأت الأقصوصة.. إن إبراهيم دخل تجربة الزوجتين.. سارة هي الزوجة الأولى.. الحرة.. الحسناء.. التي يحبها حباً شديداً.. والتي لازمته طيلة حياته منذ كان فتى بالعراق.. حتى شيخوخته وهو يناهز المائة في الشام..

وهاجر هي الزوجة الثانية.. ولكنها كانت جارية.. تملكها سارة منذ أهديت إليها في مصر.. ولسنا ندري أيتهن كانت أجمل؟

سارة.. التي قيل إنها كانت أجمل امرأة منذ حواء إلى زمانها..

أم هاجر المصرية التي عاشت في ظلال القصر الملكي بمصر، وفي نعيم فرعون مصر..

والتي اكتمل فيها مزايا الجمال المصري الذي شرب من ماء النيل العظيم؟!

دخل إبراهيم تلك التجربة العنيفة..

تجربة الضرائر.. التي زادها اشتعالاً أن إحداهن عقيم لا تلد.. بينما الأخرى ولدت غلاماً، ذكراً، جميلاً، رائعاً، فيه من صغره جمال النبوة وجلالها..

وزاد اشتعالها كذلك أن هذه التي ولدت كانت تحت يد سيدتها . .

وأن تلك السيدة هي التي قدمتها لإبراهيم ليدخل بها، لعله يرزق منها بولد . .

إن سارة حين اقترحت على إبراهيم أن يدخل بهاجر، وأذنت في ذلك، لم تكن تتصور ما يحدث بعد ذلك على الطبيعة . .

فلما تحول الاقتراح إلى حقيقة، ودخل إبراهيم بجاريتها، وحملت تلك الجارية، ثم وضعت، وكان الموضوع غلاماً، فيه سر أبيه، وامتيازه، ونور نبوته . .

اشتعل القلب منها غيرة . .

وزاد نيرانها أن إبراهيم شغف بذلك الغلام حباً . .

وما له لا يشغف به وهو نسخة حرفية منه روعة وحسناً؟!

فما وضع سارة مع إبراهيم بعد ذلك إذاً؟

ولكن إبراهيم . . ذلك العظيم . . ليس كأولئك الذي ينسون الوفاء لعشيراتهم . .

فما كان منه إلا أن حل الموضوع ذلك الحل الطبيعي . .

أن يباعد بينهما . . بين سارة التي تشتعل غيرة . . وبين هاجر التي رزقه الله منها بذلك الغلام الحليم . .

ولكن أين يذهب إبراهيم بهاجر وولدها . .

أيضعهما في بيت قريب من بيت سارة؟

كلا . . إن الأمر وراء ذلك الذي يشتعل بين زوجتيه . .

إن الله قد قدر قدراً، سيقع حتماً . .

وما ذلك كله إلا الحرف الأول في القصة الخالدة..

وأمر الله إبراهيم أن يسير بهاجر ورضيعها إلى جبال فاران..

إلى جبال مكة.. حيث لا زرع، ولا ماء، ولا إنسان..

ولا أثر لأي نوع من أنواع الحياة!!

ما هذا؟!

إنه الله.. يريد أمراً..

إنه إبراهيم.. خليله.. ينفذ أمره!!

إيه يا إبراهيم؟!

ما هذا المقام؟. وما هذا الخلود؟. وما هذا الشرف؟. وما ذاك التكريم؟

عليك صلوات الله وسلامه يا خليل الرحمن..

حين أوحى إليك ربك.. أن خذ هاجر ورضيعها.. واذهب بهما إلى تلك الجبال البعيدة.. ودعهما هناك!!

شيء فوق الطاقة..

لا يستطيع بشر أن يحتمل هذا..

رجل.. مسؤول عن أسرة.. يأخذ تلك الأسرة بأكملها.. ليتركها للموت المحتم.. في تلك الصحراء الحارقة.. ثم يمضي راجعاً؟!

إن هذا في منطق الناس جنون..

ولكنه في منطق الأنبياء.. ودائرة الخليل.. أمر إلهي واجب التنفيذ فوراً.

ومن هنا.. ومن مثل ذلك.. رفع الله أولئك الأنبياء فوق عباده جميعاً درجات..

بأنهم يحتملون ما لا يستطيع البشر جميعاً احتماله..

إبراهيم؟!

ماذا أقول؟!

إنك فوق القول.. وفوق إدراكنا.. الله وحده هو الذي يعلم من أنت..

عليك صلوات الله وسلامه يا إبراهيم!!

وفي المكان المحدد..

في تلك الجبال التي تؤكد الموت للمقيم فيها..

وضع إبراهيم هاجر.. ووضع فلذة كبده.. هناك..

وترك معهما شيئاً لا يدفع عنهما الموت إلا لحظات!!

ترك جراباً صغيراً فيه قليل من التمر.

وسقاء صغيراً فيه قليل من الماء..

ثم قفى إبراهيم منطلقاً؟!

ثم ولّى عائداً..

وتركهما

أعماق التجربة

منظر تنفجر له العيون دمعاً وبُكياً!!

امرأة.. ورضيعها..

وحدهما

في جبال موحشة..

والرياح تدوي من حولهما.. بصوتها الرهيب..

لا ماء.. لا زرع.. لا إنسان.. لا طير.. لا حيوان.. لا شيء..

هذا هو المنظر..

وإبراهيم، ذلك الشيخ المهيب.. يرى كل ذلك..

ولكنه يولي عنهما عائداً..

ويتركهما!!

لماذا يفعل الله هذا!!

لماذا يفرض الله على إبراهيم هذا البلاء!

ولماذا يفرض على هاجر أن تشهد موت ابنها عطشاً وجوعاً بعينيها!

ولماذا يفرض على ذلك الرضيع أن ينشأ وحيداً في تلك الجبال؟

لأن الله يريد أن يخلصهم جميعاً لنفسه. فهو يقطع الأسباب كلها ليلجئهم إليه..

إن قلب إبراهيم قد تعلق بالغلام.. إذاً فليباعد بين إبراهيم وبين ذلك الغلام!!

إن الأب هو الذي يقوم بتربية ولده وكفالته..

إذاً فليقطع عن ذلك الغلام تلك الأسباب، وليترك وحيداً ليربيه ربه ويكفله!!

وإن تلك المرأة قد ظنت أنها أصبحت ذات حظوة عند إبراهيم حين ولدت له إسماعيل..

فيفرق بينهما.. هي في الحجاز، وهو في الشام..

ليعلم كل منهما أن الله أولى بهما من أنفسهما!!

بلايا في مظاهرها.. مرايا في جواهرها.. تعكس رحمة الله المرادة بأهل البيت وبركاته عليهم..

وأعماق وراء ذلك..

لا ندركها.. الله وحده يعلمها..

اللَّه.. الذي أمرَكَ بهذا؟!

والآن ننتقل إلى قطعة أخرى من ذلك الحديث الخالد..

«.. فتَبِعَتْهُ أُمُّ إسماعيلَ

«فقالتْ: يا إبراهيمُ! أين تذهبُ؟!. وتترُكنا بهذا الوادي الذي ليسَ فيهِ إنسٌ، ولا شيءٌ؟!

«فقالت لهُ ذلِك مِراراً

«وجَعَل لا يَلتفتُ إليها

«فقالتْ لهُ: آللّهُ الذي أمرَكَ بهذا؟!

«قال: نعَمْ

«قالتْ: إذن لا يُضيّعَنا

«ثم رجعَتْ

«فانطلقَ إبراهيمُ..» [البخاري]

«فتبعته أُم إسماعيل» وفي رواية ابن إسحاق «فاتبعته».

وفي رواية ابن جريج «فأدركته بكذا».

«إذن لا يضيعنا»، وفي رواية عطاء «لن يضيعنا».

وفي رواية ابن جريج «حسبي»، وفي رواية إبراهيم بن نافع عن كثير فقالت «رضيت بالله».

ذلك مشهد آخر من القصة الخالدة.. قصة بدء النبوة والكتاب في الأرض..

ها هو إبراهيم يترك زوجته ووحيده.. في تلك المجاهل.. ويولي راجعاً.

هكذا.. بلا مقدمات.. وبلا ترتيب.. وبلا إعداد..

كأنه يقول لهم: موتوا ها هنا!!

وها هي أم إسماعيل تتبعه وتناديه في فزع: يا إبراهيم.. أين تذهب؟. أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء!!

إن المرأة خائفة.. إنه شيء طبيعي أن تكون خائفة..

إن الليل سوف يزحف بظلامه عليهما بعد قليل..

ولا أحد معهما.. حتى إبراهيم.. الرجل الوحيد الذي معهم يرحل عنهما؟!

إنها لم تك تظن أن إبراهيم جاء بها إلى ذلك المكان ليتركها فيه تموت هي ورضيعها..

وإنما كانت تظن أنه سوف يقيم معهما فيه، أو يدبر لهما وسائل الأمن والحياة!!

فماذا فعل إبراهيم!!

وماذا أجابها؟

لم يجبها بشيء.. وظل صامتاً وواصل انطلاقه راجعاً!!

وهي تجري من ورائه وتناديه: إبراهيم.. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟!

وهو في صمته لا يتكلم.. وفي سعيه راجعاً لا يتحول..

كأن شيئاً لم يحدث.. أو كأنها لا تستغيث به ولا تناديه في فزع..

وكلما رأته يبتعد عنها.. وعن المكان الذي فيه ولدها..

كلما ازدادت سعياً من ورائه.. وهي تردد تلك العبارات خائفة..

فلما استيأست أن يرد عليها.. جاءته من حيث يستجيب: آللّهُ الذي أمَرَك بهذا؟

هنالك التفت إليها إبراهيم وقال: نعم؟

قالت: إذن لا يُضَيِّعَنا!!

ثم رجعت.. فانطلق إبراهيم!!

نعم؟!. هذا هو كل ما عند إبراهيم ليقوله لها..

إن المسألة أمرٌ من الله.. لا سبيل إلى التردد فيه.. ولا إلى الحديث فيه..

فلما سألته كان جوابه: نعم.

وهنا تبدو هاجر عظيمة في ردها: إذن لا يضيعنا..

إنها على يقين أن الله سوف لا يضيعهما، ما دام هو الآمر بذلك!!

إيمان.. توكل.. تصديق..

قل ما شئت.. فلن تدرك من أغوارها.. وأنوارها. إلا يسيراً..

وما ظنك بامرأة عاشرت خليل الرحمن..

أو ما ظنك بامرأة زوجها نبي الله، وابنها نبي الله.. كيف تكون؟!

أو ما ظنك بامرأة في آخر نسلها محمد ﷺ.. إمام الأولين والآخرين؟!

إذن لا يُضيّعَنا؟!

كلمة عالية.. كبيرة.. نورها عظيم!!

﴿إني أسكنتُ مِن ذُرِّيتي؟!﴾

«.. حتى إذا كانَ عند الثَّنِيَّةِ، حيث لا يرونَه

«استقبل بوجههِ البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلماتِ

«ورفعَ يديهِ فقال:

﴿ربِّ، إنِّي أسكنتُ من ذُرِّيَّتِي بوادٍ غير ذي زرعٍ، عند بيتِكَ المُحرَّم﴾.

«حتى بَلغ يشكُرونَ..» [البخاري].

نحن الآن أمام بحر من النور الإبراهيمي.. نرجو الله جل ثناؤه أن نستطيع السبح فيه.. بحوله وقوته..

«عند الثنية» هو في الجبل كالعقبة.

وقيل: هو الطريق العالي فيه.

وقيل: أعلى المسيل في رأسه.

«رب» يعني يا رب، ويروى «ربي».

وفي رواية «ربنا» كما في القرآن، وهو قوله تعالى:

﴿ربّنا إنّي أسْكنتُ من ذُرِّيّتِي بوادٍ غَير ذِي زَرْعٍ، عندَ بَيْتِكَ المُحرَّم،

رَبّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاة، فاجعَلْ أفئدةً مِنَ النَّاس، تهوِي إليْهم، وارزُقهُم من الثمرات، لعلّهم يشكُرون﴾.

قوله «بواد غير ذي زرع» هو مكة.

قوله «المحرم» وصف البيت بالمحرم، لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به.

قوله «ليقيموا الصلاة» عند بيتك المحرم يتعلق بقوله (أسكنت) أي ما أسكنتهم بهذا الوادي الخلاء البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم.

قوله «فاجعل أفئدة من الناس» أي من أفئدة الناس، وهو جمع فؤاد، وهي القلوب، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد.

وقيل: جمع وفود من الناس.

ولو قال: أفئدة للناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس.

قوله: «تهوي إليهم» أي تقصدهم، وتسكن إليهم.

قوله: «وارزقهم من الثمرات» أي التي تكون في بلاد الريف، حتى يحبهم الناس.

فقبل الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار لعلهم يشكرون النعمة.

ما هذا!!

هذا شيء خطير جداً..

إن زاوية خطيرة من شخصية إبراهيم تتلألأ.. بنورها المبين..

«حيث لا يرونه».. من هنا.. يبدو إبراهيم عالياً جداً جداً جداً.. إنه لم يدع ربه حيث يرونه ولكن حيث لا يرونه!!

لم يدع ربه أمام هاجر وابنها..

كلا.. وإنما حيث «لا يرونه»..

لماذا.. لماذا يتخفى إبراهيم في الدعاء.

ليكون بينه وبين خليله..

وحين يتناجى الخليل مع خليله، تحلو الوحدة، ويحلو الاختفاء عن أعين الناس.

حتى إذا كان عند الثنية!!

حتى إذا ابتعد إبراهيم عن هاجر ورضيعها، وبلغ ذلك المرتفع من الجبل، واطمأن إلى أنه أصبح وحده..

حيث لا أنس، لا شيء يراه..

هنالك انفجر قلبه يهدر، بينما عيناه تنفجر بالدموع..

وكان مقاماً عالياً..

رجل.. وحده.. ترك وراءه زوجه، ووحيده، للفناء، حيث لا ماء، ولا غذاء.. لا شيء إلا الهواء!!

ثم ماذا؟

ثم ما أروع.. وأحلى.. وأغلى..

إبراهيم يستقبل البيت بوجهه، إبراهيم يتجه إلى مكان البيت، الذي يرمز إلى وجوب الاتجاه إلى الله وحده..

حيث ترك هناك زوجه ووحيده..

إن فيها من المعاني العميقة ما لا يدركه إلا إبراهيم، ومَن أذن له الله أن يرقى إلى مقام إدراك شيء عن إبراهيم..

ورفع إبراهيم يديه.. ووجهه إلى البيت.. وفي استسلام تام لربه.. ومن قلب تتموج منه أمواج التسليم.. والحب، والرضى، والمعرفة بالله.

ومن عيون تتتابع منها الدموع..

نادى إبراهيم ربه (رب)..

ما أحلاها، صادرة عن الخليل، متجهة إلى ربه!!

﴿إنّي أسكنتُ مِن ذُرّيتي بوادٍ غير ذِي زرْعٍ؟!﴾

عوالم من العلم في هذه الجملة..

إنه يقرر أنه أسكن من ذريته.. لا كل ذريته.. أي أن هناك تضحية بهذا الغلام.

أين؟ بواد غير ذي زرع!!

بمكان ليس فيه زرع، ولا يحتمل أن يكون فيه زرع!!

إذاً الهلاك متحقق لهؤلاء الذين تركهم هناك!

عند بيتك المحرم؟

هل كان هناك بيت محرم وقتذاك؟

كلا.. وإنما هي النبوة التي أعلمها الله أن سيكون هنا بيتاً محرماً لله..

ثم ماذا؟ ثم انظر إلى أعماق الدعاء.. إن إبراهيم يشير إلى أن إسماعيل سوف تكون حقيقته.. أنه نبي.. أنه قلب لا يسكن إلا عند الله..

ثم ماذا؟ ثم نأخذ خطوة إلى الخلف، مخافة أن نحترق!

رَبنا ليقيموا الصلاة؟!

أي أسكنت من ذريتي هنا، ليكون منه أمة تقيم الصلاة، أي أمة تعبدك وحدك..

فاجعل أفئدةً من الناس، وهذا يشير إلى عظيم معرفة إبراهيم بالنواميس الإلهية..

إنه يعلم أن نسبة من الناس سوف تؤمن.. وليس كل الناس..

فكان دعاؤه دعاء العالم بالنواميس.. فطلب ما يطابق تلك النواميس..

تهوي إليهم.. أي تتجه إليهم، وتسكن إليهم.

وارزقهم من الثمرات، دعاء مطلق غير محدود..

كأن إبراهيم يطلب إلى ربه أن يكفل لهم وللأمة التي تهوي إليهم رزقاً واسعاً، فيه من الثمرات التي تكفل الحياة وتضمنها، لعلهم يشكرون..

وإني لأرجو يا رب أن يكونوا لك شاكرين على تلك النعم..

لأن إبراهيم يعلم أن منهم من سوف يكفر نعم الله عليه..

هناك إذاً هدف من العملية.. إنها لم تكن مجرد حل لمشكلة الضرتين، سارة وهاجر..

وإنما كانت تدبيراً إلهياً، ليتحقق بناء بيت الله المحرم.. في ذلك المكان..

ويتحقق وجود نبوة إسماعيل..

ثم يتحقق وجود تلك الأمة العظيمة من حوله..

ثم تتوج تلك السلسلة المباركة في نهاية أمرها.. بنبوة محمد ﷺ..

ثم يكون من وراء ذلك تلك الأمة المحمدية الرائعة، التي حملت لواء التوحيد بعد خاتم النبيين ﷺ..

والتي ما زالت موجاتها تتباعد في آفاق الحياة البشرية كلها.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!!

إن إبراهيم قد كشف الله تعالى له كل ذلك، وأكثر من ذلك.. مما يعلمه الله وحده.. وإبراهيم وحده..

وإن إبراهيم وهو يرى القصة في ذلك المقام من أولها إلى آخرها..

كان يرى القدر المرسوم.. والقضاء المحتوم..

فكان يدعو ربه بما يقرأ من قَدَره، وما يرى من قضائه..

فتطابق الدعاء والقدر.. وتلك أعلى مراتب الدعاء..

فاستجيب لإبراهيم في كل شيء دعا ربه به.. بلا استثناء..

قال إبراهيم: أسكنت من ذريتي.. وكانت استجابتها أن ذرية إسماعيل ظلت تنمو بمكة حتى صارت أمة عظيمة!

وقال: بواد غير ذي زرع.. وكانت استجابتها أن ظلت مكة إلى يومنا هذا.. وادٍ غير ذي زرع؟!

وقال: عند بيتك المحرم، كانت استجابتها أن بني البيت، وحفظه الله إلى الآن!

وقال: ليقيموا الصلاة، وقد كان من إسماعيل هذا أمة أقامت الصلاة، قروناً وقروناً، ويكفي أن كان منه ذلك النبي العربي العظيم، الذي صلى بأصحابه، وشرع للناس الصلاة، وما زالوا يصلون بصلاته إلى يومنا هذا!!

وقال: اجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وكانت استجابتها تلك الأمة التي سكنت من حول البيت، وتلك القلوب التي لا يحصيها إلا الله التي تهوى إلى حج بيت الله الحرام كل عام!!

وقال: وارزقهم من الثمرات، وكانت استجابتها أن مكة يتوافر فيها

أصناف الثمرات إلى يومنا هذا مما لا وجود له أصلاً في أرضها..

وهكذا.. إن الله استجاب لكلمات إبراهيم بتمامها!!

عَطِشت.. وعَطش ابنُها؟!

«.. وجَعَلتْ أمُّ إسماعيل تُرضعُ إسماعيل

«وتشربُ من ذلك الماءِ

«حتى إذا نفِد ما في السِّقاء عَطِشتْ، وعطِش ابنها

«وجعَلت تنظُرُ إليه يتلوَّى

«أو قال: يتلبّطُ

«فانطلقَت، كراهية أن تنظُر إليهِ

«فوجَدت الصّفا، أقرب جبلٍ في الأرض يليها

«فقامت عليه، ثم استَقبلت الوادي، تنظرُ هل ترى أحداً؟

«فلم تَر أحداً

«فهبطت من الصفا

«حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرفَ درعها

«ثم سَعَت سَعْي الإنسانِ المجهودِ

«حتى جاوزَت الوادي

«ثم أتتِ المرْوةَ، فقامتْ عليها، ونظَرت هل ترى أحداً؟

«فلم ترَ أحداً

«ففعلتْ ذلك سبع مرّاتٍ

«قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فذلِك سَعيُ الناس بَينهُما..» [البخاري]

«حتى إذا نفد ما في السقاء» أي حتى إذا فرغ الماء الذي في السقاء.

«وعطش ابنها» أي إسماعيل.

قيل: كان عمره في ذلك الوقت سنتين

وقيل: كان لبنها انقطع

«يتلوى» أي يتمرغ، ويتقلب ظهراً لبطن، ويميناً وشمالاً.

«أو يتلبط» أي يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض.

وقيل: هو أن يحرك لسانه وشفتيه كأنه يموت.

وقيل: اللبط باليد، والخبط بالرجل.

وفي رواية: فلما ظمأ إسماعيل جعل يضرب الأرض بعقبيه.

وفي رواية: يتلمظ

«ثم استقبلت الوادي»، وفي رواية: والوادي يومئذ عميق.

«ثم سعت سعي الإنسان المجهود» أي أصابه الجهد، وهو الأمر المشق

«سبع مرات» وفي حديث أبي جهم: وكان ذلك أول من سعى بين الصفا والمروة..

ما هذا؟

هذا منظر رهيب..

إنه لوحة فنية رائعة حية.. متحركة..

ذهب إبراهيم.. واختفى شبحه..

وها هي أم إسماعيل، ورضيعها بين يديها يواجهان المصير الرهيب..

ودخل الليل بظلامه..

وما أدراك ما الليل في صحراء لا أحد فيها!

وأم إسماعيل وحدها.

إلا هذا الرضيع.. الذي لا يملك من أمره شيئاً.. ولا يدري شيئاً.. ولا يزيدها إلا خوفاً ورهقاً..

وضمته إلى صدرها في حنان الأم التي تخشى على طفلها الهلاك..

من يدري؟ ربما جاء وحش في هذا الليل فافترس الطفل بين يديها، وافترسها هي الأخرى..

أو ربما فوجئت بشرير يدهمها هي وابنها، ولم يرع لهما حرمة..

ومر الليل بسلام..

وأشرقت الأرض بنور ربها..

فأنست المرأة الوحيدة بنور النهار..

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل..

وتشرب من ذلك الماء..

ثم واجهتها المشكلة الرهيبة، لقد نفد الماء الذي في السقاء.. كما نفد من قبل التمر الذي كان في الجراب..

إلا أن المرأة لم تشعر بوطأة الجوع إلا حين نفد الماء..

إنه لم يعد أمامها إلا أن تموت!!

وقد يكون موتها سهلاً على نفسها.. ولكن هذا الرضيع هل تتركه يموت أمامها!

واهتزت هاجر من أعماقها..

وفزعت من أصولها.. إن رضيعها يموت أمام عينيها.. ولا تملك له شيئاً!!

«حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت، وعطش ابنها».. يا للهول! انتهى.

الماء.. وأخذ جوفها يحترق عطشاً كأنه الجحيم..

وجعلت تعطي ثدييها لابنها فلا يجد شيئاً يمصه..

تجربة رهيبة.. رهيبة جداً..

وجعلت تنظر إليه يتلوى!!

إن الرضيع يتمرغ من العطش والجوع.. ويتقلب ظهراً لبطن.. ويميناً وشمالاً..

إنه يصرخ صراخاً يقاوم فيه الفناء..

فكأن صرخته تنبع من فؤاد أم إسماعيل.. وينشق لها كيانها!!

أم.. تشهد موت رضيعها.. بسبب جفاف ثدييها!!

ماذا تفعل؟

وجعل يتلبط.. يضرب بنفسه الأرض..

وكلما نظرت إليه ازدادت رعباً وفزعاً وهلعاً..

ثم ماذا؟

ثم خفت صوت الرضيع.. وضعفت أنفاسه.. وجعل يقترب من الموت..

هنالك استبد الفزع بأمه.. ولم تستطع أن تنظر إليه يموت بين يديها..

«فانطلقت».. «كراهية».. «أن تنظر إليه»..

انطلقت كالمجنونة أو أشد جنوناً..

إن ابنها يعاني سكرات الموت.. ولا تستطيع أن تراه وهو يموت!!

ثم ماذا؟

وباللاوعي.. وفي حركة لا إرادية.. كانت قد ارتفعت على أعلى ممكان وأقربه إليها..

«فوجدت الصفا، أقرب جبل في الأرض يليها»..

إنها متلهفة.. إنها تريد أن تأتيه بما ينقذه من الموت فوراً..

«فقامت عليه» فوقفت على الصفا..

«ثم استقبلت الوادي» ثم نظرت إلى الوادي العميق..

«تنظر هل ترى أحداً؟» كيف كانت أم إسماعيل في تلك اللحظة؟

الله وحده.. هو الذي يعلم حقيقة إحساسها، وهي ترجو أن ترى أحداً يأتيها ولو بقطرة ماء واحدة..

«فلم تر أحداً» كان الوادي من جميع جهاته خالياً..

وانطفأ الأمل الذي أشرق في وجودها..

«فهبطت من الصفا.. حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها»..

لماذا؟

مخافة أن يمنعها الملبس من سرعة الحركة..

إنها تريد أن تلغي الزمان والمكان.. لتنقذ طفلها من الموت!!

ثم ماذا؟

ثم.. «ثم سعت سعي الإنسان المجهود».. إنها متعبة، قد أعياها التعب، والجوع، والخوف، والفزع، إن كيانها يوشك أن ينهد وينهار.

ولكن شدة فزعها على طفلها هو الذي يحركها ويدفعها..

وباللاوعي وباللاإرادة، وجدت نفسها ترتفع على المروة، وتقوم عليها، وتنظر هل ترى أحداً؟

فلم تر أحداً!

يأس تام من الخلق.. لا وجود لأحد من الإنس.. أو غير الإنس..

لقد تقطعت الأسباب كلها..

ثم ماذا؟

«ففعلت ذلك سبع مرات» تسعى إلى الصفا.. ثم ترتفع عليه، ثم تنظر، ثم لا ترى أحداً، ثم تهبط إلى الوادي وتسعى، ثم ترتفع على المروة، ثم تنظر، ثم لا ترى أحداً..

لقد بلغ بها الإعياء أقصاه..

وبلغ الفزع أقصاه..

وكان الإعياء يشدها إلى التوقف..

بينما الفزع يرغمها على الحركة والبحث.

فكانت تتحرك باللاوعي، وتسعى باللاإرادة..

خلود ما فعلته أمُّ إسماعيل؟!

وكانت تجربة، عليا، من تلك التجارب، الرهيبة، التي يختبر الله تبارك وتعالى بها من اصطفى من عباده..

تجربة عاشتها أم اسماعيل، وانصهرت فيها.

ورأت من أعماقها كيف تتقطع الأسباب كلها، وكيف تنهار القوى البشرية من أساسها، وكيف ترى الحياة تزول عن ابنها بعينيها!

وتعظيماً لتلك التجربة..

وإجلالاً لها..

وتخليداً لرموزها.

وتكريماً لأم إسماعيل، فرض الله تبارك وتعالى على الناس جميعاً، أن يفعلوا مثل ما فعلت أم إسماعيل، فيسعوا مثل سعيها..

فقال جل جلاله:

﴿إنّ الصّفا والمرْوَةَ مِن شعائرِ اللهِ، فمَنْ حجَّ البيتَ، أو اعتمَرَ، فلا جُناحَ عليه أن يَطوَّفَ بهما، ومَن تطوّعَ خيراً فإنَّ الله شاكرٌ عليمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

(من شعائر الله) جمع شعيرة وهي العلامة

والمراد بهما أعلام المتعبدات أو العبادات

والمعنى: إن الطواف بين هذين الجبلين من علامات دين الله تعالى.

(فمن حج البيت أو اعتمر) الحج لغة القصد مطلقاً، والعمرة الزيارة كأن الزائر يَعمُر المكان بزيارته.

(فلا جناح عليه أن يطوف بهما) أي لا إثم عليه في أن يطوف بهما.

وقيل: إن الطواف سنة.

وقيل: ركن

وسبب النزول:

(أنه كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له أساف.

وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة.

زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما.

فلما طالت المدة عبدا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين.

فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية).

(ومن تطوع خيراً) من فعل خيراً، أي خير كان يثاب عليه.

(فإن الله شاكر) أي يجازي على الطاعة بالثواب، وفي التعبير به مبالغة في الإحسان إلى العباد..

(عليم) مبالغ في العلم بالأشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئاً.

وهكذا، جعل الله تعالى الصفا والمروة والسعي بينهما سبعاً، كما فعلت هاجر، من شعائر الله.

من علامات دينه

وطلب من كل من حج البيت أو اعتمر أن يفعل مثل ما فعلت!

فأي خلود، وأي تعظيم، وأي إكبار أكبر من ذلك؟

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ:

«فذلكَ سَعْيُ الناس بينهما..» [البخاري].

إن الله يخلد فعلة أُم إسماعيل..

وإن رسوله يخلد فعلتها.

وإن الناس جميعاً ما زالوا يخلدون تلك الفعلة، كلما حجوا البيت أو اعتمروا!

كيف ظَهرَ الماء؟!

«فلمّا أشرَفت على المروةِ سمِعت صوتاً

«فقالتْ: صَه

«تُريدُ نفسَها

«ثمّ تسَمّعتْ

«فسمعَتْ أيضاً

«فقالت: قد أسمعْت إنْ كان عِندكَ غُواثٌ

«فإذا هي بالمَلَكِ، عندَ موضع زمزم

«فبحث بعقبِهِ

«أو قال بجناحِهِ

«حتى ظَهر الماءُ

«فجَعلت تحوِّضُهُ، وتقولُ بيدها هكذا

«وجعلت تغرفُ من الماءِ في سقائها

«وهو يَفورُ بَعد ما تغرُف

قال ابن عباس:

قال النبي ﷺ:

«يَرحَمُ الله أُمّ إسماعيلَ لو تركت زمزمَ»

أو قال:

«لو لمَ تغرفْ من الماء لكان زمزَمُ عيناً مَعيناً. .» [البخاري]

(فقالت: صه) والمعنى لما سمعت الصوت قالت لنفسها صه، أي اسكتي.

وفي رواية: فقالت: أغثني إن كان عندك خير.

(ثم تسمعت) أي تكلفت في السماع واجتهدت فيه.

(قد أسمعت) من الإسماع.

(غواث) إن كان عندك غواث أغثني.

(فإذا هي بالملك) وفي رواية: فإذا جبريل.

وفي حديث: فناداها جبريل، فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر، أم ولد إبراهيم.

قال: فإلى مَن وكلكما.

قالت: إلى الله.

قال: وكلكما إلى كافٍ.

(فبحث بعقبه) البحث طلب الشيء في التراب، وكأنه حفر بطرف رجله.

(أو قال بجناحه) شك من الراوي

ومعنى قال بجناحه: أشار به.

وفي رواية: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض.

وفي رواية: فركض جبريل برجله.

وفي حديث علي: ففحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم.

(حتى ظهر الماء) وفي رواية: ففاض الماء

وفي رواية: فانبثق أي تفجر.

(وجعلت تحوضه) أي تجعله كالحوض لئلا يذهب الماء.

وفي رواية: فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفر.

وفي رواية: تحفن.

وفي رواية: فجعلت تفحص الأرض بيدها.

(وتقول بيدها) هكذا، هو حكاية فعلها، وهذا من إطلاق القول على الفعل.

(عيناً معيناً) عيناً جارية، وهو الماء الذي يجري على وجه الأرض.

وعن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال:

«يرحمُ اللّهُ أُمّ إسماعيل، لولا أنها عجِلت، لكان زمزَمُ عيناً معيناً.» [البخاري].

(رحم الله أُم إسماعيل) هي هاجر وقصتها ملخصة..

(أن سارة زوج إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، حلفت أن لا تساكن هاجر.

(فحملها إبراهيم وإسماعيل معها إلى مكة

(وموضع البيت يومئذ ربوة

(فوضعهما موضع الحجر، ثم انصرف.

(فاتبعته هاجر فقالت: إلى من تكلنا؟ فالله أمرك بهذا؟

(قال: نعم

(فقالت: إذن لا يضيعنا

(ثم انصرف راجعاً إلى الشام

(وكان مع هاجر شَنَّة ماء، وقد نفد، فعطشت وعطش الصبي

(فقامت وصعدت الصفا فتسمعت هل تسمع صوتاً، أو ترى إنساناً، فلم تسمع صوتاً ولم تر أحداً

(ثم ذهبت إلى المروة، فصعدت عليها، وفعلت مثل ذلك فلم تزل تسعى بينهما حتى سعت سبع مرات

(وأصل السعي من هذا

(ثم سمعت صوتاً، فجعلت تدعو: اسمع ايل، يعني اسمع يا الله، قد هَلَكْتُ، وهَلكَ مَن معي

(فإذا هي بجبريل ـ عليه السلام ـ فقال لها: مَن أنت؟

(قالت: سرية إبراهيم، تركني وابني ههنا

(قال: إلى من وَكلكما؟

(قالت: إلى الله تعالى

(قال: وكلكماً إلى كافٍ

(ثم جاء بهما إلى موضع زمزم، فضرب بعقبه، ففارت عيناً

(فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل - عليه السلام -

(فلما نبع الماء أخذت هاجر شنتها، وجعلت تستقي فيها، تدخره، وهي تفور

(فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً) أي سائلاً جارياً على وجه الأرض.

تلك هي الأقصوصة الرائعة التي خلدها الله تبارك وتعالى، وجعلها آية للعالمين..

فلما بلغت هاجر آخر مدى من فقد الأمل، فلما أشرفت على المروة، وقد انتهت من السعي سبعاً..

سمعت صوتاً..أي صوت هذا؟ إنه صوت الملاك..

فقالت لنفسها: اسكتي

ثم جعلت تتكلف السماع والإنصات في لهفة.

فسمعت أيضاً.. أي سمعت نفس الصوت الذي سمعته أول مرة..

فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواث أغثني.

إنها لا تريد من هذا الصوت إلا أن يغيثها، ويغيث ابنها، ثم فوجئت بجبريل - عليه السلام - عند موضع زمزم.

ثم كانت المفاجأة الكبرى أن جبريل مس الأرض بجناحه، فتفجر الماء!

فدهشت أم إسماعيل، حيث كان هذا آخر ما تفكر فيه

واندفعت نحو الماء المتفجر، تصنع من حوله حوضاً، مخافة أن يذهب سدى في الرمال!

وجعلت تملأ سقاءها الصغير!

وشربت أم إسماعيل، وعادت إليها الحياة من جديد

وجرى اللبن في ثدييها، وجعلت تلقمهما صغيرها

وهو يمصهما، فرحاً بعودة الحياة إلى شرايينه!

وكان أشد ما أثار عجبها أن الماء لم ينفد

وأن العين استمرت تعطي ماءها الحلو، الجميل!

إنَّ اللّهَ لا يُضيعُ أهلهُ؟!

«.. قال.. فشَرِبَتْ، وأرضعت ولدها

«فقال لها الملكُ: لا تخافوا الضَّيعة

«فإنّ ها هنا بيتَ اللّهِ، يبْنيهِ هذا الغلامُ

«وأبوهُ

«وإنّ اللّهَ لا يُضيّعُ أهلهُ

«وكان البيتُ مُرتفعاً من الأرضِ، كالرّابيةِ، تأتيه السيولُ، فتأخُذُ عنْ يمينهِ وشمالهِ..» [البخاري]

(لا تخافوا الضيعة) أي الهلاك، ويروى: لا تخافي

وفي حديث أبي جهم، فقالت: بشرك الله بخير

وفيه أن الملك يتكلم مع غير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

(يبني هذا الغلام) وفي رواية: يبنيه

(كالرابية) وهو المكان المرتفع

لقد كان منظراً عظيماً

أن جلست أم إسماعيل وقد بلغ بها السرور أقصى غاياته، بعد أن بلغ بها الحزن أقصى غاياته

جلست هادئة، بعد أن كانت فزعة مذعورة، ترضع ولدها

وكان أجمل ما في هذا الموقف أن جبريل ـ عليه السلام ـ انطلق يطمئنها، ويحدثها . .

فقال: لا تخافوا الضيعة، لا تخافوا الهلاك.

ثم نبأها بما سيكون فقال: فإن ها هنا بيت الله

(يبنيه هذا الغلام) فكان ذلك لها عجباً!

هذا الرضيع يبني ها هنا بيتاً لله؟!

ولكن ها هو جبريل ـ عليه السلام ـ يؤكد ذلك، ويشير إلى الرضيع!

ثم حدد جبريل القضية، حين قال: (وأبوه)

إن إبراهيم، وإسماعيل، سوف يبنيان بيتاً لله!

إذن هذا الرضيع سوف يكبر، حتى يستطيع أن يبني ذلك البيت مع أبيه!

ثم أعلن إليها جبريل ـ عليه السلام ـ أجمل بشرى يمكن أن تسمعها:

«وإنّ الله لا يُضيّعُ أهلهُ»!!

ناموس إلهي يذيعه جبريل، إن الله لا يهلك أهله، لا يضيع الذين يعملون له ومن أجله وحده، كما حفظوه يحفظهم، وكما صدقوه يصدقهم . .

وتنزلت كلمات جبريل ـ عليه السلام ـ على فؤاد أم إسماعيل برداً وسلاماً.

إن لها أن تطمئن، إلى حياتها، وحياة رضيعها

وإن لها أن تأمل في ذلك اليوم الذي سوف ترى فيه إسماعيل شاباً يعين أباه على بناء البيت..

وإن لها أن تدع شأنها كله لله.. يدبره، ويحكمه كيف يشاء.

أتأذنينَ لنا أن ننزلَ عندكِ؟!

«فكانت كذلك

«حتى مَرّتْ بهم رُفقةٌ من جُرهُمَ

«أو أهلُ بيت من جُرهُم

«مُقبلين من طريقِ كدَاء

«فنزلوا في أسفَل مكةَ، فرأوْا طائراً عائفاً

«فقالوا: إنّ هذا الطائِرَ ليدورُ على ماء

«لعَهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ

«فأرسلوا جَريًا أو جَريين

«فإذا هم بالماء

«فرجعوا فأخبروهم بالماء

«فأقبلوا

«قال: وأُمُّ إسماعيل عند الماء

«فقالوا: أتأذنينَ لنا أن ننزل عندك؟

«فقالت: نَعم، ولكن لا حقّ لكمْ في الماء

«قالوا: نعمْ

«قال ابن عباسٍ: قال النبي ﷺ: فألفى ذلكَ، أم إسماعيلَ، وهي تحِبُّ الأنس

«فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهُم

«حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهُم

«وشبّ الغُلامُ

«وتعلمَ العربية منهم

«وأنفسَهُم وأعجبهُم، حين شبّ. .» [البخاري]

(من جرهم) حي من اليمن، وهو ابن قحطان، بن عابر، بن شالخ، ابن أرفخشذ، بن سام، بن نوح ـ عليه السلام ـ

وكانت جُرْهُم يومئذ بوادٍ قريب من مكة

(أو أهل بيت من جرهم) شك من الراوي

(مقبلين) متوجهين

(من طريق كداء) محل في أعلى مكة، أي داخلين من الجهة العليا

(عائفاً) هو الذي يتردد على الماء، ويحوم حوله، ولا يمضي عنه

(لعهدنا) اللام للتأكيد

(فأرسلوا جَريّاً) أي رسولاً

(أو جريين) شك من الراوي، هل أرسلوا واحداً أو اثنين؟

(فإذا هم بالماء) كلمة إذا للمفاجأة

(فأقبلوا) أي جُرْهم، أقبلوا إلى جهة الماء

(وأُمّ إسماعيل عند الماء) أي كائنة عند الماء مستقرة

(فقالت: نعم) أي قالت أم إسماعيل: نعم أذنت لكم بالنزول

(فألفى ذلك) أي وجد ذلك الجرهمي أم إسماعيل محبة للمؤانسة بالناس

وقال بعضهم:

فأتى استئذان جُرهم بالنزول أُمّ إسماعيل والحال أنها تحب الأُنس، لأنها كانت وحدها، وإسماعيل صغير، والوحشة متمكنة.

(وشب الغلام) أي إسماعيل - عليه الصلاة والسلام -

وفي حديث أبي جهم: ونشأ إسماعيل بين ولدانهم أي ولدان جُرْهُم

(وتعلم العربية منهم) أي من جُرْهم

ومن حديث ابن عباس:

«أول من نطق بالعربية إسماعيل»..

أي أول من تكلم بالعربية من أولاد إبراهيم إسماعيل - عليهما السلام - لأن إبراهيم وأهله كلهم لم يكونوا يتكلمون بالعربية.

(وأنفَسَهُم) أي رغبهم فيه وفي مصاهرته

(وأعجبَهُم) أي أعجبهم في نفاسته، وصار عندهم نفيساً.

وهكذا.. كانت تلك هي البداية.. بداية المجتمع حول زمزم..

وبداية تلك الأفئدة من الناس تهوي إليهم..

لقد اجتذب الماء إليه أولئك الناس..

ليكونوا لأُم إسماعيل أنساً ولابنها مجتمعاً ينشأ فيه!.

﴿يَا بُنَيَّ.. إني أرَى في المَنامِ.. أني أذبحكَ﴾ . . !؟

نحن

الآن أمام أعظم مشهد من مشاهد حياة إسماعيل . .

المشهد الذي اختصَّ الله به رسوله ونبيه إسماعيل . .

أعظم تجربة مرَّ عليها إنسان إلى أن تقوم الساعة . .

أشق اختبار يُختبر به إنسان على الإطلاق!!

سجَّلَ كتاب الله هذا فقال:

﴿إنّ هَذَا لَهُوَ البلاءُ المُبِينُ﴾ . !!

فكيف وَقَع الأمر . . وما قصة هذا البلاء العظيم؟!

ها هي الواقعة . . أعظم واقعة!!

إني أرَى في المنامِ.. أني أذْبَحك؟!

وشب إسماعيل . . غلاماً فيه كل ما في إبراهيم من امتياز . .

وما في الصحراء من فتوة وصفاء . .

يشير إلى ذلك ما جاء في الحديث السابق:

«وشبّ الغلامُ، وأنفَسَهُم، وأعجَبَهم» . .

أي أنه أثار إعجابهم، ورغبوا في مصاهرته، رغبة شديدة!

لماذا؟

لأن إسماعيل فيه سر أبيه، سر إبراهيم..

فيه الحقيقة الإبراهيمية تتلألأ..

ثم هو رضيع تربى في الصحراء..

ثم هو خلق ليكون نبياً رسولاً، فمن الحتم أن يكون ممتازاً..

غلام لا يراه أحد إلا أحبه كأنما كان فيه تحقيق قوله تعالى:

﴿وألقيتُ عليكَ محبّةً منّي ولِتُصْنعَ على عَيْني﴾..

ثم هو وحيد أبيه.. إبراهيم.. مَنَّ الله عليه به استجابة لدعائه:

﴿ربِّ هَبْ لي منَ الصَّالِحينَ﴾..

ثم هو عند أبيه قرة عين له..

ثم هو يحبه حباً شديداً، لما يرى فيه من أنوار النبوة، وجمال الرسالة..

فهو يراه تحقيقاً لآماله، يحمل صفاته، ويحمل رسالته..

وحين يرى الأب في ابنه تحقيق أمانيه يزداد له حباً، ويزداد فيه رغبة..

وترعرع الغلامُ.. حتى بلغ مبلغ السعي.

ولنسمع الآن إلى الله تعالى يسجل الواقعة..

قال تعالى:

﴿فلمَّا بَلغَ معهُ السَّعْيَ قال يا بُنيّ إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذبَحُك فانظرْ ماذا ترى؟ قالَ: يا أبَتِ افعَلْ ما تؤمَرُ، ستجدُني إنْ شاءَ اللّهُ منَ الصَّابرينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]

(فلما بلغ معه السعي) أي فوهبناه له، ونشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه.

ويكون حاصل المعنى بلغ عند أبيه، وفي صحبته، متخلقاً بأخلاقه، متطبعاً بطباعه، ويستدعي ذلك كمال محبة الأب إياه.

وفيه بيان استجابة دعائه.

وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنة..

والولد أحب ما يكون عند أبيه في سن يقدر فيه على إغاثة الأب، وقضاء حاجه، ولا يقدر فيه على العصيان

﴿قالَ: يا بُنيَّ إنّي أرى في المنامِ أنّي أذبَحُك﴾..

رأى ليلاً.. كأن قائلاً يقول: إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك..

ولعل السر في كونه مناماً لا يقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص.

وقيل: كان ذلك في المنام دون اليقظة ليدل على أن حالتي الأنبياء يقظة ومناماً سواء في الصدق.

(فانظر ماذا ترى؟) من الرأي.

وإنما شاوره في ذلك وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل.

فيثبت قدمه إن جزع، ويأمن عليه إن سلم، وليوطن نفسه عليه، فيهون عليه، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى عند نزوله، وليكون سنة في المشاورة..

(قال: يا أبت افعل ما تؤمر) أي الذي تؤمر به..

ولما كان خطاب الأب (يا بُنيَّ) على سبيل الترحم..

قال هو (يا أبَتِ) على سبيل التوقير والتعظيم..

(ستجدني إن شاء الله من الصابرين) على قضاء الله تعالى ذبحاً كان أو غيره.

وقيل: على الذبح.

وقوله: (من الصابرين) فيه من التواضع ما فيه.

وفيه أيضاً إغراء لأبيه على الصبر، لما يعلم من شفقته عليه مع عظيم البلاء، حيث أشار إلى أن لله تعالى عباداً صابرين.

ما هذا؟!

لا يستطيع إلا الله.. أن يقدر إبراهيم في هذا المقام..

ولا يستطيع إلا الله.. أن يقدر إسماعيل في هذا المقام..

إنه شيء فوق طاقتنا جميعاً.. مهما أوتينا من إيمان.. أو إدراك أو فهم.. أو علم.. أو ارتفاع.. أو إلهام..

لن نستطيع أن نصل إلى شيء من مقامهما، وهما يختبران..

أب.. كبير السن.. رزقه الله غلاماً، بعد يأس من النسل..

ولم يرزقه غيره، فهو كل أمله في حياته..

ليس هذا وحده..

بل جاء الغلام وفيه كل الصفات العليا الظاهرة، والباطنة، التي يمكن أن يرتفع إليها إنسان..

فهو عظيم في صورته..

عظيم في صفاته..

عظيم في حقيقته..

وما ظنك بغلام فيه صفات خليل الرحمن.. إبراهيم؟!

أو ما ظنك بغلام كان من إبراهيم..

بعدما اعتزل كل شيء.. وآوى إلى الله؟!

وإلى ذلك المعنى تشير الآيات.

﴿وقالَ إنِّي ذاهبٌ إلى ربِّي سيهدِينِ. ربِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالحينَ. فبشَّرْناهُ بغُلامٍ حليمٍ. فلمَّا بَلَغَ معهُ السَّعْيَ قال: يا بُنيَّ إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذْبَحُكَ..﴾

إني ذاهب إلى ربي!

بعد أن ارتفع إبراهيم إلى أعلى مقام يمكن أن يرتفع إليه نبي إلى ربه..

دعاه: هب لي من الصالحين..

كان إبراهيم في قمة قربه من الله..

دعاه.. وهو أقرب ما يكون منه تعالى..

هب لي من الصالحين..

فبشرناه؟!.. بغلام.. حليم؟!

فآتاه غلاماً.. فيه نفس الصفات التي كانت متقررة في إبراهيم وقت دعائه لله!!

هذا هو سر إسماعيل..

لقد جاء يحمل الحقيقة الإبراهيمية في أعلى مقاماتها، في أعلى قمم ذهابها إلى ربها..

فكيف يكون هذا الغلام؟!

ثم ماذا؟

ثم يأتي البلاء!!

فماذا حدث؟

يرى إبراهيم في منامه أن الله يأمره أن يذبح ابنه..

ويفكر إبراهيم في الأمر..

ثم يعود فيرى أن الله يأمره أن يذبح ابنه..

ويفكر إبراهيم في الأمر..

ثم يعود فيرى أن الله يأمره أن يذبح ابنه..

إذن الأمر يراد به هذا الغلام الوحيد..

هذا الـ (إسماعيل)..

ويتجه إبراهيم إلى حيث يقيم إسماعيل مع أمه..

في وادي مكة..

ثم يكون حوار.. بين أب وابن..

لم.. ولن تشهد البشرية.. مثله قط!!

افعلْ ما تُؤمَرُ؟!

لم يكن ذلك الحوار.. طويلاً.. ولا كلاماً كثيراً..

كلا.. ولا يشهده أحد من الناس..

وإنما.. كانا وحدهما، يعانيان تجربتهما، وحدهما..

وكما ارتفعا إلى مقامهما وحدهما، وتركا الناس بعيداً..

فإنهما باشرا تجربتهما وحدهما، وتركا الناس بعيداً..

وها هو أقصر حوار..

وأخطر حوار..

في تاريخ البشر..

إبراهيم: يا بُنيّ.. إني أرَى في المنام.. أني أذبَحُكَ فانظُرْ ماذا تَرَى؟

إسماعيل: يا أبتِ.. افعَلْ.. مَا تُؤمَرُ.. ستجدُني.. إن شاءَ الله.. مِنَ الصابرينَ.

هذا هو أقصر، وأخطر، وأكبر حوار في تاريخ الإنسان..

إنه أقصر.. لأنه من جوامع الكلم التي لا يستطيعها إلا الأنبياء.

وأخطر.. لأنه حقيقة إبراهيم، خليل الرحمن، تتحدث إلى حقيقة إسماعيل.. التي هي امتداد الحقيقة الأولى!!

إنه نور يتحدث إلى نور!!

وإنه أكبر، لأن فيه من كبريات المعاني، وعظائم الأسرار ما لا يعلمه إلا الله تعالى!!

ثم ماذا؟

ثم يكون ذلك الحوار.. في وحدة.. بعيداً عن أعين الناس جميعاً..

ليجتمع له شرف الإخلاص الظاهر، كما تحقق فيه من قبل شرف الإخلاص الباطن..

قال الأب: يا بُنيّ..

فنظر الغلام إلى أبيه نظرة كلها حب ورحمة وتوقير..

وانتظر ماذا يقول له أبوه..

قال الأب: إني أرَى في المنامِ أني أذبحُكَ!!

شيء لا يتصوره العقل.. أب يقول لابنه إني أرى في نومي أني أذبحك!!

ولمن؟. لابنه..

وفي أي سن كان ذلك الابن؟ في الثالثة عشرة.. سن الاشتغال بحب الدنيا والرغبة في الاستمتاع بها..

فلو أن أباً.. أيًاما كان ذلك الأب.. قال ذلك لابنه.. تعال يا بني لأقتلك ذبحاً.. لرمى الابن أباه بالجنون، أو سارع إلى أبيه إذا أصر على قتله ليقتله قبل أن يمد إليه يده!!

ولقال الناس: دفاع عن النفس مشروع!!

ولكن إسماعيل.. الغلام الحليم.. كان له رد عظيم..

يخالف كل ما يمكن أن يصدر عن غلام في مثل ذلك الموقف الرهيب..

قال: يا أبتِ..

عظَّم أباه.. ووقره، لم يرمه بجنون، ولا خبال، وإنما عظمه وأكبره!!

افعَلْ ما تُؤْمَرُ!!

لا تتردد يا أبتي.. نفذ ما أمرك الله..

غلام.. صغير.. لم يكتمل عقله بعد، يكون منه هذا الرد العجيب..

وفيمن؟ في شيء من أخص خصائصه..

في شيء يتعلق بوجوده..

إنه يوافق على أن يُذبح..

بل ويدفع أباه دفعاً إلى التنفيذ..

بل ويرتفع أكثر فأكثر، فيقول: ستجدني إن شاء الله من الصابرين؟!

هل هذا المنطق المحكم في طاقة طفل؟!

كلا.. ولكنها النبوة تتكلم..

إنه يغلق كل مداخل التردد على أبيه، إن كنت يا أبتي تأخذك الشفقة عليّ، فسوف تجدني عند الذبح من الصابرين عليه..

إن شاء الله؟ كلمة العارفين بالله..

فكيف بالنبوة، أعلى مقامات المعرفة بالله؟!

وما كان بإبراهيم تردد، وحاشاه..

وإنما يردد إسماعيل عليه ذلك التأكيد من نفسه، عن نفسه، ليدفعه دفعاً إلى تنفيذ أمر ربه!!

ذلك هو الحوار القصير، الخطير، الكبير..

الذي كان بين إبراهيم وإسماعيل..

ولا أستطيع أن أقول فيه، إلا أن أكرر مقالي..

ذلك مقامهما وحدهما، لا يستطيعه أحد سواهما..

ولا يعلمه إلا الله الذي خلقهما وأرسلهما..

ولا أقول فيه إلا أن أدعو البشر جميعاً، أولئك الذين غشاهم الظلام طويلاً..

ليتأملوا، ويتفكروا، ويتدبروا.. ثم يخروا سجداً، وبكياً. وهم يرددون.. سلام على إبراهيم.. سلام على إسماعيل..

﴿فلما أسلما﴾؟!

ثم يقول تعالى:

﴿فلمَّا أسلَمَا. وتَلَّهُ للجَبينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

«فلما أسلما» أي فوضا إليه تعالى، في قضائه وقدره.

«وتله للجبين» صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض.

وقيل: المراد كبه على وجهه، وكان ذلك بإشارة منه.

عن مجاهد: إنه قال لأبيه:

لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي عسى أن ترحمني، فلا تجهز علي، اربط يدي إلى رقبتي، ثم ضع وجهي للأرض، ففعل، فكان ما كان.

وفي خبر للسدي.. أنه قال لأبيه ـ عليهما السلام ـ:

يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء، فتراه أمي، فتحزن، وأسرع مَرَّ السكين على حلقي، فيكون أهون للموت عليّ، فإذا أتيت أمي، فاقرأ عليها السلام مني، فأقبل عليه إبراهيم يقبله، وكل منهما يبكي..

وعن ابن عباس: أنه قال لأبيه، وكان عليه قميص أبيض:

يا أبت ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فكان ما قص الله عز وجل.

وكان ذلك عند الصخرة التي بمنى.

وقيل: في المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

ما هذا!

هذا شيء لا يستطيع إنسان حين يفكر فيه أن يحبس عينيه عن البكاء.. طويلاً..

فلما أسْلَما؟!

فلما أسلم إبراهيم لربه.. ولما أسلم إسماعيل لربه..

الاثنان.. الأب.. والابن. أسلما لربهما..

استسلم إبراهيم لأمر ربه، وأيقن أن ذبح ابنه، ووحيده.. أمر حتمي، لا بد من تنفيذه..

واستعد لتنفيذ ما أُمِرَ..

فلما عرض إبراهيم الأمر على ابنه، الذي هو موضوع التجربة:

فانظر ماذا ترى؟

كان استسلام الابن لأمر الله أعجب من استسلام الأب لأمره:

﴿افعَلْ ما تُؤمَرُ﴾..

فلما أسلما؟!

ألقيا بنفسيهما إلى الله، يفعل بهما ما يشاء..

الأب هو الذابح..

والابن هو المذبوح..

وكلاهما استسلم لله!!

لا تردد، ولا خوف، ولا ريبة ولا شك..

وإنما استسلام مطلق.. لله.

قال تعالى:

﴿إذْ قالَ لهُ ربُّهُ: أسْلِمْ، قال: أسلَمْتُ لربِّ العالمينَ﴾ [البقرة: ١٣١]

وقال تعالى:

﴿وإبراهيمَ الذي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وأي توفية أكبر من هذا؟!

وأي إسلام أعظم من هذا؟!

الله يقول: اذبح ابنك يا إبراهيم..

وإبراهيم يقول: نعم نعم.. أذبح ابني!!

لعل هذا من معنى قوله:

﴿أسْلِمْ، قالَ أسْلَمْتُ﴾

اذبَحْ.. قال: ذَبَحْتُ!!.

﴿وَتلَّهُ لِلجبينِ﴾؟!

نحن الآن في أصدق عمل يمكن أن يقدمه إنسان لربه..

نحن الآن في أشق تجربة مرت على إنسان في الوجود..

نحن الآن أمام إبراهيم يخرج من وادي مكة.. حيث زمزم.. حيث يقيم إسماعيل الغلام العظيم.. مع أمه.. هاجر..

يخرج إبراهيم.. وفي صحبته ابنه إسماعيل..

وتلك الأم الطيبة.. الطاهرة.. تنظر إلى زوجها وابنها في يده نظرة كلها إعجاب وحنان وأمل..

ولا تظن إلا أن إبراهيم قد خرج بابنه كما يخرج الآباء بأبنائهم . . لقضاء شأن من شؤون الحياة . .

ثم لا يلبثا أن يعودا إليها لتقر بهما عيناً . . ويملآ حياتها بهجة وسروراً . .

خرج إبراهيم . . ومعه إسماعيل . .

وكلاهما يعلم لماذا خرج .

وإسماعيل يعلم أنه خرج مع أبيه ليقوم أبوه بذبحه!!

وهنا نردد قوله تعالى: فلما أسلما . .

نرددها كثيراً، لعلنا نرتفع إلى مستوى يسمح لنا أن ندرك شيئاً عن التجربة . .

ومشى الأب ومعه الابن . .

وما زالا يمشيان . . حتى جاوزا مكة . . نزلا بمنى . .

كيف كان شعور إبراهيم في تلك اللحظات الأخيرة التي يصطحب فيها ابنه؟

وكيف كان شعور إسماعيل في تلك اللحظات الأخيرة التي يصطحب فيها أباه؟!

الله وحده... هو الذي يعلم ما كان في فؤادهما . .

وهنا نردد قوله تعالى:

﴿وكُنّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ . .

هو وحده الذي كان يعلم ما في قلبه، وما في قلب إسماعيل!!

ولو انفتح لنا أدنى إشعاع مما كان يتذبذب من فؤادهما، ويتموج مرتفعاً إلى ربهما . .

لاحترقت قلوبنا جميعاً.. مما فيه من نور شديد..

وفي مِنى..

في تلك الصحراء الخالية، حيث لا إنسان.. ولا ماء.. ولا شيء.. في ذلك المكان.. وقع قوله تعالى:

﴿وتلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؟!

أي صرع إبراهيم ابنه إسماعيل على شقه، فوقع جبينه على الأرض أو كبَّه على وجهه، وكان ذلك بإشارة من إسماعيل!!

إن إبراهيم الآن يباشر التجربة.. إنها لحظة التنفيذ، إن الأب قد أضجع ابنه للذبح..

أضجعه وجبينه للأرض..

وأخرج إبراهيم السكين.. وهوى بها على عنق إسماعيل يذبحه..!!!

***

﴿وناديناهُ.. أنْ.. يا إبراهيمُ﴾؟!

قال تعالى:

﴿وناديْناهُ أنْ يا إبراهيمُ. قَدْ صدَّقْتَ الرُّؤيا. إنّا كذلكَ نَجْزي المُحْسنينَ. إنَّ هذا لهُوَ البلاءُ المبينُ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٦].

«وناديناه أن يا إبراهيم» أن بمعنى أي.

وقرئ: صَدَقْتْ

عن ابن عباس:

لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه، نودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وروي: فلما أدخل يده ليذبحه، فلم يحمل المدية حتى نودي أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، فأمسك يده.

وروي: فلما أدخل يده ليذبحه، نودي أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا، فأمسك يده، ورفع رأسه، فرأى الكبش ينحط إليه، حتى وقع عليه فذبحه.

وروي: أنه أمر السكين فانقلبت.

«قد صدقت الرؤيا» وتصديقه الرؤيا توفيته حقها من العمل، وبذل وسعه في إيقاعها، وذلك بالعزم، والإتيان بالمقدمات.

وقيل: الاعتراف بوجوب العمل بها.

وجواب «لما» محذوف مقدر.. أي كان ما كان، مما تنطق به الحال، ولا يحيط به المقال من استبشارهما، وشكرهما الله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله، والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله، وإظهار فضلهما، مع إحراز الثواب العظيم، إلى غير ذلك.

«إنا كذلك نجزي المحسنين» تعليل لإفراج تلك الشدة، المفهوم من الجواب المقدر.

«إنَّ هذا لهو البلاءُ المبينُ» أي الابتلاء والاختبار البين، الذي يتميز فيه المخلص من غيره.

أو المحنة البينة، وهي المحنة الظاهرة صعوبتها، وما وقع لا شيء أصعب منه، ولا تكاد تخفى صعوبته على أحد.

ولله عز وجل أن يبتلي من شاء بما شاء، وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد.

﴿وَفَدَيناهُ.. بِذِبحٍ عَظيمٍ﴾؟!

قال تعالى:

﴿وفَدَيْناهُ بذِبحٍ عظيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

«وفديناه بذبح» بحيوان يذبح بدله.

«عظيم» أي عظيم الجثة، سمين، وهو كبش أبيض، أقرن، أعين.

وقيل: وصف بالعظم لأنه متقبل يقيناً.

وقال الحسن: لأنه كان من عند الله عز وجل.

وقيل: لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين.

وقيل: لأنه جرت السنة به، وصار ديناً باقياً آخر الدهر.

عن ابن عباس:

أنه خرج عليه كبش من الجنة.. فأرسل إبراهيم، عليه السلام، ابنه، واتبعه، فرماه بسبع حصيات، وأحرجه عند الجمرة الأولى، فأفلته، ورماه بسبع حصيات، وأحرجه عند الجمرة الوسطى، فأفلت، ورماه بسبع حصيات، وأحرجه عند الجمرة الكبرى، فأتى به المنحر من منى فذبح.

وقيل: هذا أصل سنية رمي الجمار.

والمشهور أن أصل السنية رمي الشيطان هناك.

ففي خبر، عن قتادة:

إن الشيطان أراد أن يصيب حاجة من إبراهيم وابنه يوم أُمر بذبحه، فتمثل بصديق له، فأراد أن يصده عن ذلك، فلم يتمكن، فأتى الجمرة، فانتفخ حتى سد الوادي، ومع إبراهيم مَلَك فقال له: ارم يا إبراهيم، فرمى بسبع حصيات، يكبر في أثر كل حصاة، فأفرج له عن الطريق، ثم انطلق

حتى أتى الجمرة الثانية، فسد الوادي أيضاً، فقال الملك: ارم يا إبراهيم، فرمى كما في الأولى؟ وهكذا في الثالثة.

﴿وَتَرَكنا عَليهِ في الآخِرِينَ﴾؟!

قال تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨].

تلك هي التجربة العظمى..

إبراهيم يضجع ابنه..

وإسماعيل يستسلم.. ولا يقاوم.. وينتظر وقع السكين.. يحتز عنقه..

إبراهيم يمد يده بالسكين ويهوي بها على عنقه.

في تلك اللحظة الفاصلة، التي تحقق فيها صدق إبراهيم.. وصدق إسماعيل..

في تلك اللحظة الرهيبة..

ناديناه.. ناداه الله بنفسه..

يا إبراهيم.. يا إبراهيم..

صوت الله ينادي إبراهيم.. فدوى في أعماقه..

فالتفت. فرفع يده عن ذبح الغلام..

ودوى في أعماقه فأصغى إلى الصوت الذي لا يقاوم وهو يقول له: قد صَدَّقتَ الرؤيا..

قد ثبت الآن صدقك يا إبراهيم..

ثم أصغى فسمع الصوت يقول: إنَّا كذلك نجزي المحسنينَ..

ثم أصغى فسمع الصوت يقول: إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبينُ..

ثم نظر فرأى المعجزة.. رأى كبشاً عظيماً.. قادماً إليه.. من عند الله..

فنهض الغلام لم يمسسه سوء..

وأخذ إبراهيم الكبش العظيم.. وذبحه فداء لإسماعيل..

ونحر إبراهيم ذلك الكبش بيده في مِنى..

فكان انفراجاً للازمة.. ودفعاً للبلاء..

وتتابعت المكافآت الإلهية على إبراهيم..

جزاء إحسانه.. «إنَّا كذلك نجزي المحسنين»..

«وَتَرَكْنا عليهِ في الآخِرينَ» أي أبقينا ذكره الجميل بين الأمم..

أي خلدنا فعلته خلوداً عظيماً، وجعلناه شرفاً يتغنى به الأولون والآخرون..

وأي شرف أعظم مما حصل لإبراهيم وإسماعيل..

﴿سَلامٌ عَلى إبراهيمَ﴾؟!

مكافأة أخرى..

قال تعالى:

﴿سلامٌ على إبراهيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]

أمان من الله لإبراهيم..

في الدنيا والآخرة.

لماذا؟. بما فعل..

بما أحسن.. بما قدم..

لذلك يقول بعدها مباشرة:

﴿كذلكَ نَجْزي المُحْسنين﴾ [الصافات: ١١٠].

جزاء إحسانه.. جزاء صدقه.. جزاء إخلاصه..

جزاء إيمانه.. الذي بلغ فيه الذروة..

ولذلك يقول تعالى بعدها مباشرة:

﴿إِنَّهُ مِنْ عبادِنا المؤمنينَ﴾ [الصافات: ١١١]

أي الكاملين في الإيمان.. الذين بلغوا قمة الإيمان في العالمين.

إنها مكافآت إلهية متتابعة..

الأولى.. وتركنا عليه في الآخرين..

الخلود. خلود الفعلة.. والذكر الجميل.. بين الناس أجمعين..

الثانية.. كذلك نجزي المحسنين، حتمية مكافأة المحسن.. وإن إبراهيمم قمة الإحسان في البشر..

الثالثة.. إنه من عبادنا المؤمنين.. إذاعة إلهية.. على الناس كافة.. أنَّ إبراهيم قمة الإيمان في البشرية..

مكافآت.. عطايا.. قل ما شئت.. إنه الله تعالى يجزي إبراهيم.. أحسن الجزاء!!

لماذا كان هذا هو البلاء المبين؟!

قال تعالى:

﴿إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

وذلك في شأن الأمر بذبح إسماعيل..

وقال تعالى:

﴿وإذْ نَجَّيناكُم مِنْ آلِ فرعونَ، يَسومُونكمْ سُوءَ العذابِ، يذَبّحونَ أبْناءَكمْ، ويَسْتَحْيونَ نساءَكُمْ، وفي ذلِكم بلاءٌ مِنْ ربِّكُمْ عظيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]

وذلك في شأن تذبيح فرعون للأبناء الذكور من بني إسرائيل..

وقال تعالى:

﴿فانطلقا، حتى إذا لَقِيا غُلاماً فقتَلهُ، قالَ: أقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغَيرِ نفْسٍ، لقَدْ جِئتَ شَيئاً نُكراً﴾ [الكهف: ٧٤]

وذلك في شأن الغلام الذي قتله الخضر ذبحاً.. حيث قيل إنه اقتلع رقبته!

فماذا نستنبط من هذا؟

في قصة إسماعيل أمرٌ بالذبح..

ابتلاء إبراهيم وإسماعيلُ في آن..

وفي قصة بني إسرائيل، يُسلط فرعون، فيذبح أبناءهم..

ابتلاء لبني إسرائيل في أبنائهم..

وفي قصة غلام الخضر.. أمرٌ إلى الخِضْر بذبح الغلام، ابتلاء لأبويه..

﴿ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أمرِي﴾..

فماذا في هذا؟

فيه إشارات إلى أن الصدق في تنفيذ أوامر الله يؤدي إلى النجاة والفوز العظيم..

فحين صدق إبراهيم الرؤيا.. وذبح ابنه..

أعفاه الله تعالى من ذلك البلاء.. وكافأه في الدنيا والآخرة..

وحين صبر بنو إسرائيل على ابتلائهم بيد فرعون..

كانت المكافأة العظمى

﴿ونُريدُ أن نمُنَّ على الذِينَ استُضعِفُوا في الأرضِ، ونجعَلَهُمْ أئمَّةً ونجعَلَهُمُ الوارِثينَ. ونُمَكِّنَ لهُمْ في الأرضِ، ونُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وجُنودَهُما منهُم ما كانوا يَحذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦]

وحين ذبح الخضر الغلام، وكان ذلك بلاء لأبويه المؤمنين، أبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رشداً..

﴿وأمَّا الغُلامُ فكانَ أبوَاهُ مؤمنَينِ، فخشِينَا أنْ يُرْهِقَهما طُغْياناً وكُفراً. فأردْنا أن يُبْدِلَهُما ربُّهُما خيراً منهُ زكاةً وأقرَبَ رُحماً﴾.. [الكهف: ٨٠ ـ ٨١]

إشارات.. أسرار إلهية.. في أفعاله.. وابتلائه لعباده..

وكما أدى ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه.. إلى رفعته في الدنيا والآخرة..

﴿وإذِ ابتَلَى إبراهيمَ ربُّهُ بكلِمَاتٍ فأتمَّهُنَّ. قالَ: إنِّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً﴾.. [البقرة: ١٢٤]

وأي أمر ابتلى به إبراهيم فأتمه أكبر من أمره بذبح ابنه؟!

فكان ذلك هو سبيله إلى إمامة الناس جميعاً..

كذلك بني إسرائيل.. ابتلوا بمن يذبح أبناءهم.. فكان ذلك سبيلهم إلى ميراث مشارق الأرض ومغاربها..

فلما بدلوا.. ذلوا وهانوا وعوقبوا..

وفي مقام إبراهيم.. أُمِرَ هوَ أن يباشر ذبح ابنه بنفسه..

لأن ذلك شيء يناسب إبراهيم..

أما في مقام بني إسرائيل.. فسلط عليهم من يذبح أبناءهم.. لأنهم لا يرقون إلى مقام مباشرة الذبح بأنفسهم..

كما أن أبوي الغلام في قصة الخضر، سلط الخضر على الغلام فذبحه، لأن أبويه لا يستطيعان ذبح ابنهما بأيديهما..

وهنا يرتفع إبراهيم فوق البشر جميعاً.. مقاماً علياً..

فلا نعلم أن أحداً في الناس ابتلاه الله بمثل ما ابتلى به إبراهيم..

ولا نعلم أحداً أُمر بذبح ابنه فامتثل وذبح غير إبراهيم..

ومن هنا نال إبراهيم: إني جاعلك للناس إماماً..

ومن هنا نال إبراهيم: واتخذ الله إبراهيم خليلاً..

ومن هنا نال إبراهيم: وإبراهيمَ الذي وَفَّى.

ومن هنا نال إبراهيم: وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهُنَّ

ومن هنا نال إبراهيم: وتركنا عليه في الآخِرينَ.

ومن هنا نال إبراهيم: إنا كذلك نَجْزي المحسنينَ.

ومن هنا نال إبراهيم: إنَّ هذا لهو البلاءُ المبينُ.

ومن هنا نال إبراهيم: كذلك نجزي المحسنينَ..

تأكيد بعد تأكيد بأنه سيُجزى جزاء المحسنين.

ومن هنا نال: سلامٌ على إبراهيم.

ومن هنا نال إبراهيم: إنه مِن عبادنا المؤمنين.

ومن هنا نال إبراهيم: وكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ.

ونال.. ونال.. ونال.. وكان ما كافأه الله به بعد أن استبان صدقه.. في ذلك البلاء المبين..

وبعد أن وضح صدقه في التضحية بابنه. ووحيده ليذبحه لله..

كافأه بغلام ثانٍ.. عظيم كعظمة الغلام الأول..

فحفظ له غلامه الأول.. إسماعيل.. الذبيح..

ليكون نبياً ورسولاً إلى أمته..

وليكون أصلاً يتفرّع منه في نهاية أمره.. ذلك الذي هو خير الأولين والآخرين.. ذلك الذي سمَّاه محمداً.. صلى الله تعالى عليه وآله وسلم..

حفظ له غلامه الأول إسماعيل..

وكافأه بغلام آخر.. اسمه..

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾؟!

ولننظر إلى تسلسل الآيات الكريمة كيف تمضي ترتب الأمر على الأمر، والسبب على المسبب:

﴿إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبينُ. وفدَيْناهُ بِذِبْحٍ عظيمٍ. وترَكنا عليهِ في الآخِرينَ. سلامٌ على إبراهيمَ. كذلكَ نجزي المحسنينَ. إنّهُ مِنْ عبادِنا المؤمِنينَ. وبشَّرناهُ بإسحاقَ نبيّاً مِنَ الصَّالِحينَ. وبَارَكْنا عليْهِ. وعَلى إسْحاقَ. ومِن ذُرِّيَّتِهِما مُحسِنٌ. وظالمٌ لنفسِهِ مُبينٌ﴾ [الصافات: ١٠٦ ـ ١١٣]

«وبشرناه بإسحاق نبيّاً» أي مقضياً كونه نبيّاً، مقضياً كونه من الصالحين.

«من الصالحين» تعظيم شأن الصلاح، وفي تأخيره إيماء إلى أنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل.

«وباركنا عليه» أي على إبراهيم ـ عليه السلام ـ

«وعلى إسحاق» أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا بأن كثرنا نسلهما، وجعلنا منهم أنبياء ورسلاً.

«ومن ذريتهما محسن» في عمله، أو في نفسه بالإيمان والطاعة.

«وظالم لنفسه» بالكفر والمعاصي، ويدخل فيها ظلم الغير.

«مبين» ظاهر ظلمه.

وفي ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال. وأن الظلم في الأعقاب لا يعود على الأصول بنقيصة وعيب.

وهكذا.. تنطق الآيات في اطرادها المحكم.. بأن إسحاق بشرى.. كان مكافأة.. لإبراهيم على صدقه وإخلاصه في إسماعيل!

إن إبراهيم دعا ربه:

﴿هَبْ لي منَ الصَّالحينَ﴾..

فبشرناه بغلام حليم.

فأعطاه إسماعيل..

فلما أثبت إبراهيم أن إسماعيل لا يشغله عن ربه، لا يشغله شاغل من ولد أو غيره.

بشر بغلام عليم، وأعطاه إسحاق، زيادة منه وفضلاً.

وجعل كلاً منهما أصلاً من أصول النبوة والكتاب في العالمين.

إسماعيل أصل الفرع الذي تناهى إلى محمد ﷺ..

وإسحاق أصل تلك السلسلة المباركة من أنبياء بني إسرائيل الذي تناهى إلى المسيح ﷺ..!!

زواج.. إسماعيل؟!

نعود ثانية إلى إسماعيل - عليه السلام - وقد تركناه عند مرحلة «وشب الغلام» التي وردت في ذلك الحديث الذي رواه البخاري.

والآن نعود إلى نفس الحديث ونصل ما انقطع منه هناك.

«فلما أَدْرَكَ زَوَّجوه امرَأَةً مِنهمْ. .» [البخاري]

«زوجوه امرأة منهم» وعن ابن إسحاق: إن إسماعيل خطبها إلى أبيها فزوجها منه.

إن إسماعيل إذن قد أدرك، قد بلغ مبلغ الرجال، وتاقت نفسه إلى الزواج، فتزوّج امرأة من أولئك الذين وفدوا يساكنوهم حول زمزم.

وقد رغبوا جميعاً في مصاهرته، وتنافسوا عليه، لما يرون من امتيازه، وكيف لا، وفيه جمال أبيه، ونبوة أبيه؟!

وفي رواية البخاري الأخرى:

«فبلَّغ ابنها، فنكح فيهمِ امرأةً».

موت أم إسماعيل؟!

«وماتَتْ أُمُّ إسماعيلَ. .» [البخاري]

«وماتت أُمُّ إسماعيل» يعني في خلال ذلك

وفي رواية عطاء بن السائب:

فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر، عليها السلام. وكان عمرها تسعين سنة، فدفنها إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحِجْر.

لقد ماتت هاجر، بعد أن أدت دورها، وتركت إسماعيل رجلاً له زوجة..

لماذا طلقَ إسماعيل زوجته؟!

«.. فجاءَ إبراهيم، بَعْدَما تَزوّجَ إسماعيل.. يطالِع تركتهُ..

«فلمْ يَجدْ إسماعيلَ..

«فسألَ امرأته عنه..

«فقالَت: خَرج يَبتغي لنا..

«ثمّ سَألها عن عَيْشِهم وَهيئَتِهِمْ..

«فقالَتْ: نَحنُ بِشَرٍّ.. نَحن في ضيقٍ وشِدّةٍ..

«فشكَتْ إليهِ..

«قال: فإذا جاء زوْجكِ، فاقرَئي عليهِ السلامَ، وقُولي له.. يُغيِّرُ عَتبةَ بابهِ..

«فلمّا جاء إسماعيلُ، كأنّهُ آنَسَ شَيئاً..

«فقالَ: هل جاءكمْ مِنْ أحَدٍ؟

«قالَت: نَعمْ.. جاءَنا شيخٌ.. كذَا وكذا.. فسألنا عنكَ فأخبرتُهُ.. وسألني: كيفَ عَيشنا؟ فأخبرْتهُ أنّا في جَهدٍ وشِدّةٍ..

«قال: فهلْ أوصَاكِ بشيءٍ؟

«قالتْ: نَعمْ.. أمَرني أنْ أقرأ عليكَ السّلامَ.. ويقول غيِّرْ عَتبَةَ بابِكَ..

«قالَ: ذاكِ أبي.. وقَدْ أمَرَني أنْ أُفارِقَكِ.. الحقِي بأهلِكِ

«فطلَّقها.. وتَزَوَّجَ منهم أُخرى..» [البخاري]

«يطالع تركته» أي يتفقد حال ما تركه هناك.. والتركة، بمعنى المتروكة، والمراد بها أهله، والمطالعة النظر في الأمور.

«خرج يبتغي لنا» أي يطلب لنا الرزق

وفي رواية ابن جريج: وكان عيش إسماعيل الصيد، يخرج فيتصيد.

وفي حديث أبي جهم: ولكن إسماعيل يرعى ماشية، ويخرج متنكباً قوسه، فيرمي الصيد.

«ثم سألها عن عيشهم» وزاد في رواية عطاء بن السائب، وقال: هل عندك من ضيافة؟

«فقالت: نحن في ضيق وشدة» وفي حديث أبي جهم: فقال لها: هل من منزل؟ فقالت: لاها الله إذاً، قال: فكيف عيشكم؟ قال: فذكرت جهداً، فقالت: أما الطعام فلا طعام، وأما الشاء فلا نحلب إلا المصر أي الشخب، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ (الشخب: السيلان)

«يغير عتبة بابه» هي ههنا كناية عن المرأة

«جاءنا شيخ كذا وكذا» وفي رواية عطاء بن السائب: كالمستخف بشأنه

«ذاك أبي» أي ذاك الذي هو أبي إبراهيم

«وتزوج منهم أخرى» أي تزوج من جُرْهُم امرأة أخرى.

إنها واقعة عظيمة من وقائع إبراهيم، وما أكثر عظائمه!

كان من دأبه أن يتردد على هاجر وابنها، فيسافر من الشام حيث كان يقيم، إلى وادي مكة حيث كانت هاجر تقيم.

وقد روي أن إبراهيم كان يزور هاجر كل شهر، ثم كان ما كان، وتزوج إسماعيل، وماتت هاجر، فلم يعد هناك حاجة بإبراهيم أن يتردد كل شهر على أهله.

وإنما كان يتردد بعد ذلك، كلما رأى أن يطالع تركته هناك، وفي ذات يوم سافر إبراهيم إلى وادي مكة، وجاء منزل ابنه إسماعيل فلم يجده، وسأل زوجته عنه فأخبرته أنه خرج يصيد كعادته، ثم جعل يختبرها، فسألها عن حالهم، فانطلقت تسب حالها، وتنعي حظها، وتندب عيشها.. فعلم إبراهيم أنها امرأة كفورة بنعم ربها..

ثم تأكد له ذلك حين سألها: هل من منزل؟

فقالت: لا؟!

- فكيف عيشكم؟

فقالت: أما الطعام فلا طعام، وأما الشاء فلا نحلب إلا الشخب، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ؟!

إنها امرأة كفورة.. وبلغة العصر الحاضر متشائمة، فهي لا ترى من نعم الله شيئاً..

كذلك المثل المشهور.. رجلان، أحدهما شاكر أي متفائل.. والآخر كافر أي متشائم.. رأيا كوباً ممتلئاً إلى نصفه بالماء..

أما الشاكر فإنه يقول: الكوب ممتلئ إلى نصفه بالماء..

وأما الكافر فإنه يقول: الكوب نصفه فارغ ليس به ماء!

فهذه المرأة لم تر من الطعام شيئاً يذكر.. فقالت: أما الطعام فلا طعام!! ولم تر من الشاء شيئاً، فقالت: أما الشاء فلا نحلب إلا الشخب.. ولم تر من الماء بزمزم شيئاً، فقالت: وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ؟!

حتى الماء عميت عنه حتى وصفته بالغلظ؟! إنها امرأة كفورة.. متشائمة.. ويصور نفسيتها قولها: نحن في ضيق وشدة..

إنها لا ترى من حياتها الزوجية إلا أنها في ضيق وشدة!!

أما إسماعيل.. ذلك الشاب الرائع.. الشجاع.. القوي.. العظيم.. الذي تستمتع بشبابه.. وجماله.. وأما تلك اللحوم التي يأتيها بها من حصيلة صيده كان يوم. كل هذا لا تراه، وإنما ترى الجانب الفارغ من حياتها..

إنها في ضيق وشدة!! امرأة كفورة، لا ينبغي أن تكون زوجاً لإسماعيل.. إنها على النقيض منه، فهو الشاكر لأنعم الله.. وهي الكافرة بأنعم الله..

وعلى الفور صدر أمر إبراهيم إلى ابنه: غَيِّر عتبة بابك..

وأدركها إسماعيل على الفور فقال: أنتِ ذاك، فاذهبي إلى أهلك!!

واقعة عظيمة، من إبراهيم.. وواقعة أعظم، من إسماعيل..

أما إبراهيم.. فمنة عظيمة بأنه اختبر المرأة، حتى رأى بإشعاع النبوة أنها ليست أهلاً لابنه.. وأنها كفورة بربها.. فأمره أن يفارقها..

وأما من إسماعيل.. فطاعته لأبيه، وسرعة امتثاله لأمره.. فما أن أتمت حديثها، حتى كان قد سرَّحها!!

إنه إسماعيل.. لا يعصى لأبيه أمراً!! وكيف يعصيه وهو أبوه فوق ما هو رسول الله إليه؟

أو كيف يعصيه، وهو يعلم بما أودع الله فيه من نور النبوة..

إن إبراهيم لا ينطق عن الهوى؟!

في ظلال الزوجة الشاكرة؟!

«فلَبث عنهم إبراهيم.. ما شاء الله.. ثم أتاهُم بَعد..

«فلمْ يَجده..

«فدَخل على امرأتهِ.. فسألها عَنهُ..

«فقالت: خَرجَ يَبتغي لَنا..

«قال: كيفَ أنتمْ؟

«وسألَها عن عَيشهم وهيئتهم

«فقالت: نحن بخيرِ وَسعةٍ..

«وأثْنتْ على الله

«فقالَ: ما طعامُكمْ؟

«قالتِ: اللحْمُ

«قال: فما شرابكم

«قالتِ: الماءُ

«قال: اللهُمّ باركْ لهُمْ في اللحْمِ والماءِ

«قال النبيّ ﷺ: ولـمْ يكنْ لهُم يومَئذٍ حبٌّ، ولو كان لهُم دعا لهُم فيه.

«قال: فهما لا يَخلو عليْهما أحَدٌ بغير مكةَ إلا لم يُوافِقاهُ.

«قال: فإذا جاء زَوجكِ فاقرئي عليه السلامَ، ومريه يثبت عتبَةَ بابِهِ.

«فلمّا جاءَ إسماعيلُ قال: هلْ أتاكُمْ مِنْ أحدٍ؟

«قالَتْ: نَعم.. أتانا شيخٌ، حَسن الهيئةِ..

«وأثنت عليه

«فسألني عنكَ، فأخبرتهُ

«فسألني: كيف عَيشنا؟ فأخبرتهُ أنّا بخيرٍ..

«قال: فأوْصَاكِ بشيْءٍ؟

«قالتْ: نَعمْ.. هو يَقْرأُ عليكَ السلام، ويَأمرك أن تثبت عَتبةَ بابِك..

«قال: ذاك أبي.. وأنتِ العتَبةُ.. أمَرَني أن أمسِكَكِ..» [البخاري]

«نحن بخير وسعة» وفي حديث أبي جهم: نحن في خير عيش بحمد الله، ونحن في لبن كثير، ولحم كثير، وماء طيب.

«اللهم بارك لهم في اللحم والماء» وفي رواية إبراهيم بن نافع: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم.

«فهما لا يخلو عليهما أحد» أي فاللحم والماء لا يعتمد عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

والغرض أن المداومة على اللحم والماء لا يوافق الأمزجة، وينحرف المزاج عنهما، إلا في مكة فإنهما يوافقانه وهذا من جملة بركاتها، وأثر دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وفي حديث أبي جهم: ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه، يقال خلوت بالشيء واختليت به إذا لم تخلط به غيره.

«هل أتاكم من أحد؟» وفي رواية عطاء بن السائب: فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن الناس وجهاً، وأطيب ريحاً.

«أن تثبت عتبة بابك» وفي حديث أبي جهم: فإنها فلاح المنزل.

«أن أمسكك» وفي حديث أبي جهم: ولقد كنت عليّ كريمة، ولقد ازددت عليّ كرامة، فولدت لإسماعيل اثني عشر رجلاً وهم: نابت، قيدار، إذميل، ميشى، مسمع، ذوما، ماش، أزر، فطور، نافش، ظميا، قيدما.

وكانت له ابنة تسمى نسمة

***

وهنا يتلألأ إبراهيم نوراً عظيماً.. لا يمكن أن يكون إلا من إبراهيم!

إنه عاد بعد مدة.. فوجد إسماعيل قد تزوج أخرى.. فقال: أين إسماعيل؟.

فقالت: ذهب يصيد.. ألا تنزِلُ فتطْعَمَ وتَشْرَبَ؟

وهنا تفترق هذه الزوجة، عن الأخرى، من أول لحظة..

إن الأولى لم تدعه إلى النزول، ولم تدعه إلى طعام، أو شراب، بل ذهبت توصد الأبواب في وجهه.. أما الطعام فلا طعام، وأما اللبن فلا شيء إلا الشخب.. كأنها تقول له: لا ضيافة.. ارجع من حيث أتيت!!

أما هذه فتقول: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟!

فارق كبير جداً بين نفسية ونفسية.. هذه تصد إبراهيم صدوداً..وهذه تدعوه وتدعوه..

إنه الفارق بين نفس مظلمة، كفورة.. وأخرى منيرة، شكورة..

فقال الشيخ: وما طعامكم، وما شرابكم؟

قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء.

قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم.

وسألها عن عيشهم، وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير، وسعة، وأثنت على الله..

بل في رواية أنها قالت: نحن في خير عيش.. بحمد الله. ونحن في لبن كثير، ولحم كثير، وماء طيب!!

وهنا تفترق النفسيتان افتراقاً عظيماً.. كما ينفلق الليل عن النهار، إذا انشق الصباح..

نفس العيشة.. لم يتغير شيء من حياة إسماعيل.. ومع هذا يكون تعبير هذه عن حالهما نحن في خير عيش، بحمد الله، ونحن في لبن كثير، ولحم كثير، وماء طيب..

بينما يكون تعبير الأخرى عن نفس المستوى، ونفس العيش: نحن بشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة..

أما الطعام فلا طعام، وأما الشاء فلا نحلب إلا الشخب، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ!!

هذه تقول: نحن في خير عيش..

والأخرى تقول: نحن بشَرٍّ، نحن في ضيق وشدة!!

وهذه تقول: بحمد الله..

وهذه لا تذكر الله.. ولا وجود له في تفكيرها!!

وهذه تقول: نحن في لبن كثير.

والأخرى تقول: أما اللبن فلا نحلب إلا الشخب!!

وهذه تقول: ولحم كثير. والأخرى تقول: أما الطعام فلا طعام. وهذه تقول: وماء طيب. والأخرى تقول: أما الماء فعلى ما ترى من الغلظ!!

افتراق.. نفسيتان على النقيض.. بينهما من البعد كما بين

المشرقين.. وبينهما من الاختلاف كما بين الظلام والنور..

هذه ترى كل شيء حسناً وكثيراً وطيباً.. والأخرى ترى كل شيء رديئاً وقليلاً وسيئاً!! وهذا كله ناشئ عن سبب واحد..

إن هذه شكورة.. والأخرى كفورة.. إن هذه تعرف ربها وتشكره.. والأخرى لا تعرف ربها ولا تشكره..

وقد وضح هذا جداً.. في أن الشاكرة أثنت على الله وقالت: بحمد الله..

بينما الأولى لم تذكر الله إطلاقاً في حديثها.. وفي أن الشكورة دعته أن ينزل، وأن يطعم، وأن يشرب.. بينما القديمة دفعته دفعاً بسوء حديثها أن يرحل عنهم!!.

شيخ.. أحسن الناس وجهاً؟!

ثم كان من تعبير الشكورة حين سألها إسماعيل: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ، أحسن الناس وجهاً، وأطيب ريحاً!!

بينما الأخرى حين سألها، أجابته في استخفاف؛ كأنها تحقر من شأن ذلك الشيخ.. جاءنا شيخ كذا وكذا!!

هذه تعظم من شأن الرجل الزائر.. وتراه أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً.. وهذه تستخف بشأنه!!

وهذا أول الدلائل على أن هذه مؤمنة شاكرة.. وهذه كافرة ناكرة..

أما الشاكرة المؤمنة فرأت ببصيرتها، وإحساس قلبها السليم أن هذا القادم يزورهم رجل عظيم الباطن والظاهر.. يتلألأ فيه نور النبوة، وجلال المقام.. فكان تعبيرها عنه: أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً..

وعن نفس الشخصية، وعن نفس المنظر كان تعبير الأخرى: شيخ شأنه كذا وكذا، في استخفاف وعدم مبالاة..

وماذا ترى هذه الكفورة من إبراهيم إلا أنه ضيف ثقيل جاء يشاركهم طعامهم القليل ولبنهم النادر؟ إنها مادية.. لا ترى من نور إبراهيم شيئاً.

أما الأخرى.. ففي قلبها نور.. كشف لها عن حقيقة إبراهيم، وعظمة إبراهيم.. وجلال إبراهيم..

هنالك.. استبان لإبراهيم أن هذه هي المرأة اللائقة بإسماعيل.

هنالك قال لها: مريه أن يثبت عتبة بابه!! نعم..، هذه هي المرأة التي عبر عنها إبراهيم..

فإنها فلاح المنزل؟!

في تلك الرواية التي تروى عن إبراهيم.. «فإنها فلاح المنزل».. هذا رأي إبراهيم في تلك المرأة.. وفي كل امرأة شاكرة.. ومن هنا أمره أن يثبت عتبة بابه.. أن يستمسك بها.. فإنها فلاح منزله..

لماذا؟ وما وجه الأهمية في هذا؟

وجهه أن إسماعيل نبيّ.. ورسول.. فهو قمة في معرفة الله.. والشكر لله.. ونفسية كهذه عبارة عن نور يتحرك.. فهي أحوج ما تكون إلى شريكة حياة منيرة مؤمنة..

أما أن تكون الشريكة مظلمة كفورة.. فهذا شيء يتناقض.. ويؤدي إلى الشقاء..

وإبراهيم قد ذاق حلاوة معاشرة المرأة المؤمنة، حين عاشر سارة سيدة نساء زمانها.. المؤمنة.. وهو يحرص على أن ينعم ابنه إسماعيل بتلك

النعمة.. الكبرى.. لتتواءم شخصيته النورانية، مع شخصية زوجه.. فيكون بينهما الخير والسعادة..

ثم هو يرى بنور النبوة أن إسماعيل مرشح من قبل الله تعالى ليكون رأس فرع مبارك.. ينتهي بنبوة عليا. فلا بد إذاً أن يصطفي له زوجة مؤمنة.. شاكرة.. مخلصة..

فكانت هذه الزوجة.. وكان لإسماعيل منها اثنا عشر ولداً.. ثم كان من هؤلاء الاثني عشر ذلك الشعب العربي العظيم، الذي انبثق عنه ذلك النبي العربي العظيم..

كما كان من إسحاق يعقوب.. وكان من يعقوب أولئك الأسباط الاثني عشر.. حيث انبثقت منهم تلك السلالة المباركة من أنبياء بني إسرائيل..

إسماعيل.. يزداد حباً لزوجته؟!

هنالك قال إسماعيل في حب وإكبار لزوجته الشاكرة: ولقد كنتِ عليَّ كريمة، ولقد ازددت علي كرامة..

لقد كان إسماعيل يحب زوجته الجديدة لما يرى فيها من شمائل الشكر والإيمان بالله..

ولما كانت تشيعه في حياته من جو التفاؤل والرضى والقناعة، فلما أن جاء والده العظيم، وأمره أن يثبت عتبة بابه..

كان ذلك شهادة من أبيه، زادته حباً لامرأته، وإكراماً لها.. لقد اجتمع لتلك المرأة شهادتان.. شهادة زوجها، نبيّ الله إسماعيل بأنها كانت عليه كريمة..

وشهادة أبيه.. نبيّ الله وخليله، بأنها فلاح المنزل.. وهاتان الشهادتان

كانتا بمثابة وسامين رفيعين، يؤكدان طيب معدنها، ورفعة شأنها، فكانا بمثابة شارة الانطلاق في حياة إسماعيل.. فانطلقا.. هو وهي..

وكان منهما. ذلك الشعب العظيم... الذي انتهى بخير البشر. محمد صلى الله تعالى عليه وسلم!!!

﴿وإذ يَرفَعُ إبراهيمُ... القواعدَ من البيتِ... وإسماعيلُ﴾؟!

لئن

كان ذبح إسماعيل . . أعظم تضحية بالنفس في الله . .

فإن بناء الكعبة ـ زادها الله تشريفاً ـ كان أعظم عمل قام به إسماعيل . .

حين عاون أباه الخليل في بنائها!!

فكيف كانت القصة؟

نعود مرّة أخرى إلى وصل ما انقطع من حديث الإمام البخاريّ . .

«ثمّ لَبث عنهم ما شاء اللّهُ . .

«ثم جاء بعد ذلك

«وإسماعيل يَبري له نَبلاً، تحت دوحة قريباً مِن زَمزمَ . .

«فلما رآه، قام إليهِ . .

«فَصنعا كما يَصنعُ الوالدُ بالوَلَدِ، والوَلَد بالوالدِ . .

«ثمّ قال: يا إسماعيلُ، إنّ اللّهَ أمَرَني بأمرٍ . .

«قال: فاصنع ما أمَرَكَ ربُّك . .

«قال: وتعينني؟

«وأعِينك . .

«قال: فإنّ اللّهَ أمَرني أن أبنيَ . . ها هنا بَيْتاً . .

«وأشَار إلى أكمةٍ مرتَفِعَةٍ على ما حَوْلَها . .

«قال: فعِند ذلِكَ، رفعا القواعِدَ مِنَ البيتِ . .

«فجعل إسماعيل يَأتِي بالحجارةِ . .

«وإبراهيم يَبني . .

«حتى إذا ارْتَفع البناء . .

«جاء بهذا الحجرِ، فوَضعه له . .

«فقامَ عليهِ . .

«وهُو يَبني . .

«وإسماعيل يناوِلهُ الحِجارةَ . .

«وهما يَقولانِ:

﴿ربَّنا تقبّل مِنا إنكَ أنتَ السّميعُ العلِيمُ﴾ [البخاري]

«يبري له نبلاً» النبل السهم قبل أن يركب فيه نِصله وريشه وهو السهم العربي.

«دوحة» هي التي نزل إسماعيل وأمه تحتها أول قدومهما. وفي رواية إبراهيم بن نافع: من وراء زمزم.

«كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد» يعني من الاعتناق والمصافحة وتقبيل اليد.

«إن الله أمرني بأمر» قيل كان عمر إبراهيم في ذلك الوقت مائة سنة، وعمر إسماعيل ثلاثين سنة.

«وتعينني» وفي رواية إبراهيم بن نافع: إن الله أمرني أن تعينني عليه، قال: إذن افعل.

«أكمة» هي الرابية.

«رفعا القواعد» جمع قاعدة. وفي رواية ابن عَباس: القواعد التي رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك.

«جاء بهذا الحجر» أراد به الحجر المشهور بمقام إبراهيم عليه السلام.

وفي رواية إبراهيم بن نافع: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام.

«حتى يدورا» من الدوران.

وفي حديث أبي جهم: .. وجعل طوله في السماء تسعة أذرع، وعرضه في الأرض يعني دوره ثلاثين ذراعاً، كان ذلك بذراعهم.

زاد أبو جهم: وأدخل الحجرة في البيت وكان قبل ذلك زرباً لغنم إسماعيل.

وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض، ولم يجعل له سقفاً، وجعل له باباً، وحفر له بئراً، عند بابه خزانة للبيت يلقى فيها ما يهدى للبيت.

﴿أوّلَ بيت.. وُضِعَ للناسِ﴾؟!

قال تعالى:

﴿قُلْ صدَقَ اللّهُ، فاتبِعُوا مِلّة إبراهيمَ حنيفاً، وما كانَ مِنَ المشْرِكينَ، إنّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للنّاس للّذي ببكّةَ مُباركاً وهُدًى للعَالَمِينَ. فيه آياتٌ بيّناتٌ. مَقامُ إبراهيمَ. ومَنْ دخَلهُ كان آمناً. ولِلّهِ على النّاس حِجُّ البيتِ مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً ومَن كفرَ فإنَّ اللّهَ غنيٌّ عنِ العالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥ - ٩٧]

«قل صدق الله» أي ظهر وثبت صدقه في أن محمداً ﷺ على دين

إبراهيم - عليه السلام - فاتبعوا ملة إبراهيم، وهي دين الإسلام، فإنكم غير متبعين ملته كما تزعمون.

وقيل: اتبعوا ملته، حتى تخلصوا عن اليهودية التي اضطرتكم إلى الكذب على الله والتشديد على أنفسكم.

«حنيفاً» مائلاً عن سائر الأديان الباطلة إلى دين الحق. أو: مستقيماً على ما شرعه الله تعالى من الدين الحق في حجه ونكسه ومأكله.

«وما كان من المشركين» في أمر من أمور دينهم أصلاً.

«إن أول بيت وضع للناس»:

قيل: بلغنا أن اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه في الأرض المقدسة. فقال المسلمون: بل الكعبة أعظم.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ. . فنزلت إلى مقام إبراهيم. . والمعنى أن أول بيت وضع لعبادة الناس ربهم، أي هيئ وجعل متعبداً والواضع هو الله تعالى.

«للذي ببكة» لغة في مكة عند الأكثرين، ثم المراد بالأولية الأولية حسب الزمان. وقيل: بحسب الشرف. ويؤيد الأول ما أخرجه الشيخان.

عن أبي ذر - رضي الله تعالى عنه - قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وضع للناس. (فقال: المسجد الحرام، ثم بيت المقدس. (فقيل: كم بينهما؟ فقال: أربعون سنة)

«مباركاً» أي كثير الخير، لما أنه يضاعف فيه ثواب العبادة.

وقيل: لأنه يغفر فيه الذنوب لمن حجه وطاف به، واعتكف عنده ووجه الكرماني كونه مباركاً بأن الكعبة كالنقطة، وصفوف المتوجهين إليها في

الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، ولا شك أن فيهم أشخاصاً أرواحهم علوية وقلوبهم قدسية، وأسرارهم نورانية، وضمائرهم ربانية.

(ومن كان في المسجد الحرام يتصل أنوار تلك الأرواح الصافية المقدسة بنور روحه، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه، وهذا غاية البركة).

(ثم إن الأرض كرية، وكل آن يفرض فهو صبح لقوم، ظهر لثان، عصر لثالث، وهلم جرا، فليست الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها لأداء الفرائض فهو دائماً كذلك).

«وهدى للعالمين» أي هادياً لهم إلى الجنة، أو: هاد إليه جل شأنه بما فيه من الآيات العجيبة.

«فيه آيات بينات» ظاهرات.

«مقام إبراهيم» أي منها، أو أحدها مقام إبراهيم.

قيل: لما ارتفع بنيان الكعبة قام هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة.

«ومن دخله كان آمناً» بمعنى الحرم، على ما قاله ابن عباس..

وعن الحسن: كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل، ثم يدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول أو أبوه فلا يحركه.

ويجوز إرادة العموم بأن يفسر بالأمن في الدنيا والآخرة، ولعله الظاهر من إطلاق اللفظ.

«ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» والتقدير من استطاع منهم إليه سبيلاً فللّه عليه أن يحج، والمراد بالاستدعاء الإرادة وهي تقتضي القدرة.

وأطلقت على القدرة مطلقاً، أو بسهولة، والقدرة إما بالبدن أو بالمال، أو بهما، وإلى الأول ذهب الإمام مالك: فيجب الحج عنده على من قدر

على المشي والكسب في الطريق.

وإلى الثاني ذهب الشافعي: ولذا أوجب الاستنابة على الزمن إذا وجد أجرة من ينوب عنه.

وإلى الثالث: ذهب الإمام أبو حنيفة.

وعن ابن عباسٍ أنه قالَ: السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به.

واستدل الشافعي بما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبد الله قالَ: (لما نزلت هذه الآية ﴿ولِلَّهِ على النَّاسِ حِجّ البيتِ مَنِ استطاعَ إليه سبيلاً﴾ قام رجل فقال: يا رسول الله ما السبيل؟

(قال: الزاد والراحلة).

«ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» يحتمل أن يراد بمن كفر من لم يحج، وعبر عن ترك الحج بالكفر تغليظاً وتشديداً على تاركه كما وقع مثل ذلك:

عن أبي أمامة من قوله ﷺ: (من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس، أو سلطان جائر، أو حاجة ظاهرة، فليمت على أي حالة شاء، يهودياً، أو نصرانياً).

وقيل: لما نزلت آية الحج جمع رسول الله ﷺ أهل الملل مشركي العرب، والنصارى، واليهود، والمجوس، والصابئين فقال: إن الله تعالى قد فرض عليكم الحج فحجوا البيت.

فلم يقبله إلا المسلمون، وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نؤمن به، ولا نصلي إليه، ولا نستقبله.

فأنزل الله سبحانه (ومن كفر) الخ.

وإلى إبقائه على ظاهره ذهب ابن عباس، قال في الآية: (ومن كفر) بالحج فلم يرَ حجه بِراً ولا تركه مأثماً.

وروى ابن جرير أن الآية لما نزلت قام رجل من هذيل فقال: يا رسول الله من تركه كفر؟

(قال: من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك).

«غني عن العالمين» تأكيد الإيذان بأن ذلك هو الإيمان على الحقيقة، وهو النعمة العظيمة، وأنّ مباشره مستأهل لأن الله تعالى بجلالته، وعظمته يرضى عنه رضاً كاملاً، كما كان ساخطاً على تاركه سخطاً عظيماً.

واستأنس بعضهم لكونه عبادة عظيمة بأنه من الشرائع القديمة.

اختيار مكان البيت؟!

قال تعالى:

﴿إنَّ الذِّينَ كفرُوا ويصُدُّونَ عنْ سبيلِ اللَّهِ، والمسجدِ الحرام، الذي جعلْناهُ للنّاسِ سَوَاءَ العاكِفُ فيهِ والبادِ، ومَنْ يُردْ فيه بِإلحادٍ بظُلم نُذقْهُ مِن عذابٍ إليم. وإذْ بوّأنا لإبراهيمَ مَكانَ البيتِ أنْ لا تُشركْ بي شيئاً، وطهِّرْ بَيْتيَ للطّائفينَ، والقائِمينَ، والرُّكعِ السُّجُودِ﴾ [الحج ٢٥ - ٢٦]

«إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام» وعيد لصنف من الكفرة.

وروي أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله تعالى عنهم، عام الحديبية عن المسجد الحرام.

«الذي جعلناه للناس» كائناً من كان من غير فرق بين مكي وآفاقي.

«سواء العاكف فيه والباد» أي المقيم فيه والطارئ، فإن الإقامة لا تكون في نفسه بل في منازل مكة، أي جعلناه مباحاً للناس أو معبداً لهم.

«ومَنْ يُرِد فيه» ومن يرد فيه شيئاً ما، أو مراداً ما.

«بإلحاد» عدول عن القصد، أي الاستقامة المعنوية.

«بظلم» بغير حق أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام.

فيشمل سائر الآثام لأن حاصل معناه الميل عن الحق إلى الباطل، وهو محقق في جميع الآثام.

«نذقه من عذاب أليم» الوعيد على إرادة ذلك مطلقاً، فيفيد أن من أراد سيئة في مكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الإرادة.

ولذلك قيل: تضاعف السيئات بمكة، كما تضاعف الحسنات. والظاهر أن هذه الإذاقة في الآخرة. وأما المسجد الحرام فيطلق على الحرم كله عند عطاء، فيكون حده ما ذكر.

عن أبي هريرة: إنا لنجد في كتاب الله تعالى أن حدَّ المسجد الحرام إلى آخر المسعى.

«وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت» اذكر لهؤلاء الكفرة الذين يصدون عن سبيل الله تعالى والمسجد الحرام، وقت جعلنا مكان البيت مباءة لجدهم إبراهيم - عليه السلام - أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، ويقال بوأه منزلاً، إذا أنزله فيه ولما لزمه.

وقال الزجاج: المعنى بينا له مكان البيت ليبنيه، ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون إليه ويحجونه، وأراد بالبيت بيت الله عز وجل الكعبة المكرمة.

«أن لا تشرك بي شيئاً» باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة.

فكأنه قيل: أمرنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالعبادة. والظاهر أن الخطاب لإبراهيم ـ عليه السلام ـ

«وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» أي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده، والمراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية.

ويجوز أن يكون (القائمين) بمعنى المقيمين و(الطائفين) بمعنى الطارئين. فيكون المراد بالركع السجود فقط المصلين.

ومن ذلك يتضح أن الله تعالى هو الذي بوّأ لإبراهيم مكان البيت.. وأنه تعالى هو الذي بيّنه له..

وأن هذا المكان الذي تقوم فيه الكعبة إلى يومنا هذا مكان حدده الله تعالى لإبراهيم.. وهذا واضح كذلك من قول إبراهيم لابنه إسماعيل وهو يحاوره في أمر البيت: «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً».

«وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها».. إذن المكان محدد.. ومختار.. الله حدده لإبراهيم واختاره..

﴿وأذّن في الناسِ بالحجِّ﴾؟!

قال تعالى:

﴿وأذِّن في النّاسِ بالحجِّ يأتُوكَ رجالاً، وعلى كلِّ ضامرٍ يأتِينَ منْ كلِّ فجٍّ عميقٍ. ليشهَدُوا منافِعَ لهُمْ ويذكُرُوا اسمَ اللَّهِ في أيّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهمْ مِن بهيمةِ الأنعامِ. فكُلُوا منها وأطعِمُوا البائِسَ الفقيرَ. ثمّ ليَقْضُوا تفَثَهم. وليُوفُوا نُذُورَهم. وليَطَّوَّفُوا بالبيتِ العتيقِ. ذلك ومَن يعظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فهو خيرٌ له عند ربّه، وأُحِلّتْ لكُمُ الأنعامُ إلاّ ما يُتلى عليكم، فاجتنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ. واجتنِبُوا قولَ الزورِ﴾. [الحج: ٢٧ ـ ٣٠]

«وأذّن في الناس» أي ناد فيهم.

«بالحج» بدعوة الحج والأمر به، ويصح عندي المعنى: وأمر الناس بالحج يأتوك من كل فج عميق.

«يأتوك» يأتوا بيتك.

«رجالاً» أي مشاة، جمع راجل.

«وعلى كل ضامر» وركباناً، على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة، فهزله، أو زاد هزاله.

وعدل عن ركباناً الأخصر للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة.

«يأتين» صفة لضامر، كأنه قيل وركباناً على ضوامر يأتين. وقرئ: يأتون، أي الحجاج.

«من كل فج» أي طريق.

«عميق» بعيد.

«ليشهدوا» متعلق بيأتوك.

«منافع» عظيمة الخطر، كثيرة العدد، فتنكيرها وإن لم يكن فيها تنوين للتعظيم والتكثير.

ويجوز أن يكون للتنويع، أي نوعاً من المنافع الدينية والدنيوية.

قيل: منافع في الدنيا، ومنافع في الآخرة، فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البدن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات.

وخص مجاهد: منافع الدنيا بالتجارة، فهي جائزة للحاج من غير كراهة.

«لهم» أي منافع كائنة لهم.

«ويذكروا اسم الله» عند النحر

«في أيام معلومات» أي مخصوصات وهي أيام النحر.

وعدتها ثلاثة أيام، يوم العيد، ويومان بعده عند الحنفية.

«على ما رزقهم من بهيمة الأنعام» الذكر على بهيمة الأنعام أو مطلقاً.

وذكر أنه دل بذلك على المقصود الأصلي من النحر وما يميزه من العادات، وأومأ فيه إلى أن الأعمال الحجية كلها شرعت للذكر.

وأنه قيل (على ما رزقهم) إلى آخره تشويقاً في التقرب ببهيمة الأنعام المراد بها الإبل والبقر والضأن والمعز إلى الرازق وتهويناً عليهم في الإنفاق.

وقيل: المعلومات عشر ذي الحجة.

«فكلوا منها» فاذكروا اسم الله تعالى على ضحاياكم فكلوا من لحومها، والأمر للإباحة. أو: للندب، على مواساة الفقراء، ومساواتهم في الأكل منها.

«وأطعموا البائس» أي الذي أصابه بؤس أي شدة، وفسر بالذي يمد كفيه إلى الناس يسأل.

«الفقير» أي المحتاج.

وقيل: لا تحديد فيها يؤكل أو يطعم، لإطلاق الآية.

«ثم ليقضوا تفثهم» في الأصل الوسخ والقذر، ثم ليؤدوا نسكهم، ثم ليزيلوا وسخهم، بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب والعارضين ونتف الإبط، وحلق الرأس، والعانة.

«وليطوّفوا» طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة الذي هو من أركان

الحج، وبه تمام التحلل، فإنه قرينة قضاء التفث بالمعنى السابق.

«بالبيت العتيق» قال رسول الله ﷺ، إنما سمى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط. وقيل: القديم، فإنه أول بيت وضع للناس.

«ذلك» أي الأمر، وهذا للفصل بين الكلامين.

«ومن يعظم حرمات الله» وهو ما يحترم شرعاً.

المراد بها جميع التكليفات من مناسك الحج وغيرها، جميع المناهي في الحج فسوق وجدال وجماع وصيد، وتعظيمها أن لا يحوم حولها.

«فهو» أي فالتعظيم.

«خير له» من غيره.

«عند ربه» يثاب عليه يوم القيامة.

«وأحلت لكم الأنعام» أي ذبحها وأكلها، والمراد بها الأزواج الثمانية على الإطلاق.

«إلا ما يتلى عليكم» إلا ما يتلى عليكم آية تحريمه كالميتة وما أهلّ به لغير الله تعالى.

«فاجتنبوا الرجس» أي القذر.

«من الأوثان» أي الذي هو الأوثان، على أن من بيانية، يعني بالرجس عبادة الأوثان.

فاجتنبوا من الأوثان الرجس وهو العبادة، لأن المحرم منها إنما هو العبادة.

«واجتنبوا قول الزور» فإن عبادة الأوثان رأس الزور، لما فيها من ادعاء

الاستحقاق، والمراد من الزور مطلق الكذب، وهو من الزور بمعنى الانحراف، فإن الكذب منحرف عن الواقع.

وقيل: هو أمر باجتناب شهادة الزور. يعني بقول الزور: الشرك بالكلام، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت، ويقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وهو قول بالتخصيص.

***

﴿وأذّن في النّاس بالحجّ﴾؟!

أمر من الله إلى إبراهيم.. أن يدعو الناس جميعاً إلى الحج.. أن يقصدوا بيت الله تعالى الذي بناه..

لماذا؟ ليشهدوا منافع لهم.. ويذكروا اسم الله في أيام معلومات..

إنه دعوة للناس.. ليجتمعوا بالبيت.. فيكون من اجتماعهم هذا، ولقائهم هذا، منافع عظيمة لهم في الدنيا بالتعارف والتقارب وبحث ما يصلح شؤونهم، ومنافع أخروية كبرى بتعرضهم لرحمة الله تعالى ومغفرته..

ثم تكون فرصة طيبة يذكرون الله تعالى فيها في أيام معلومات..

وهكذا.. شرع الله الحج، وأمر إبرهيم بإذاعة ذلك على الناس.. ووعده أن كثيراً من الناس سوف يستجيبون لندائه.. يأتوك رجالاً.. وعلى كل ضامر.. يأتين من كل فج عميق.. من كل مكان بعيد..

﴿حُنفاءَ للّهِ﴾؟!

قال تعالى:

﴿حُنفَاء للَّهِ، غيرَ مشرِكينَ بهِ، ومَنْ يُشرِكْ باللَّهِ فكأنما خرَّ من

السماء. فتخطَفُهُ الطير، أو تهْوي بِهِ الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

«ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء» شبه الإيمان بالسماء لعلوه، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر.

وهذا السقوط إن كان في حق المرتد فظاهر، وهو في حق غيره باعتبار الفطرة، وجعل التمكن والقوة بمنزلة الفعل.

«فتخطفه الطير» فإن الأهواء المردية توزع أفكاره، وفي ذلك تشبيه الأفكار الموزعة بخطف جوارح الطير، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة.

«أو تهوي به الريح» تسقطه، وتقذفه.

«في مكان سحيق» بعيد، فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة.

قيل: إن الكافر قسمان لا غير، مذبذب متمادي على الشك، وعدم التصميم على ضلالة واحدة. وهذا مشبه بمن اختطفته الطير، وتوزعته فلا يستولي طائر على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر وتلك حال المذبذب، لا يلوح له خيال إلا اتبعه، وترك ما كان عليه.

ومشرك مصمم على معتقد باطل ولو نشر بالمناشير لم يكع، ولم يرجع، لا سبيل إلى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه فهو فرح، مبتهج بضلالته.

وهذا مشبه في قراره على الكفر باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل هو أبعد الإحياز عن السماء فاستقر فيه.

حنفاء لله: أي مائلين عن كل معتقد باطل.. متجهين لله وحده.. وهذا هو صلب دعوة إبراهيم.. وشرعته.. ودعوة كل رسول وشرعته..

كأن الحج كله تذكير بملة إبراهيم.. التي هي التوجه المباشر لله وحده.. والميل عما سواه.. والبعد عن إشراك غيره معه سبحانه..

﴿طَهِّرَا بَيتي﴾؟!

وقال تعالى:

﴿وإذْ جَعَلْنا البيْتَ مثابةً للنَّاسِ، وأَمْناً، واتَّخِذُوا مِنْ مقامِ إبراهيمَ مُصلّى، وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرَا بَيْتِيَ للطَّائِفينَ، والعاكِفينَ، والرُّكَّعِ السُّجودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

«وإذ جعلنا البيت» البيت من الأعلام الغالبة للكعبة.

«مثابة للناس» مجمعاً لهم، أو معاذاً، أو ملجأ، أو مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم. أو: موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره.

«وأمناً» موضع أمن. إما لسكانه من الخطف أو لحجّاجه من العذاب. حيث أن الحج يزيل ويمحو ما قبله من حقوق العباد والحقوق المالية على الصحيح.

أو: للجاني الملتجئ إليه من القتل ولم يذكر للناس هنا كما ذكر من قبل اكتفاء به، أو إشارة إلى العموم.

أي أنه أمن لكل شيء كائناً ما كان، حتى الطير، والوحش، إلا الخمس الفواسق.

«واتخِذُوا مِن مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى» وقلنا لهم اتخذوا والمأمور به الناس، أو إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولاده.

وقيل الخطاب لأمة محمد ﷺ وهو رأس المخاطبين. والمقام هو المكان، أي مكان قيامه، وهو الحجرالذي ارتفع عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ

حين ضعف من رفع الحجارة التي كان ولده إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت، وهو قول جمهور المفسرين.

وسبب النزول ما أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عمر:

(أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ بيد عمر - رضي الله تعالى عنه - فقال: يا عمر، هذا مقام إبراهيم. فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال: لم أومر بذلك. . فلم تغب الشمس حتى نزلت هذه الآية).

والأمر فيها للاستحباب، إذ المتبادر من المصلى موضع الصلاة مطلقاً.

وقيل المراد به الأمر بركعتي الطواف لما أخرجه مسلم عن جابر:

(أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، وقرأ الآية).

«وعَهِدْنا إلى إبرَاهيمَ وإسماعيلَ» أي وصينا، أو أمرنا، أو أوحينا، أو قلنا. وإسماعيل اسم علم أعجمي معناه بالعربية مطيع الله.

«أن طَهِّرَا بَيْتِي» المراد من التطهير التنظيف من كل ما لا يليق، فيدخل فيه الأوثان والأنجاس وجميع الخبائث وما يمنع منه شرعاً كالحائض.

«للطائفين» أي لأجلهم: والمراد كل من يطوف من حاضر وباد. وقيل: المراد الغرباء الوافدون مكة حجاجاً وزواراً.

«والعاكفين» هم أهل البلد الحرام المقيمون عنده، وقيل: هم الجالسون من غير طواف من بلدي وغريب.

وقال مجاهد: المجاورون له من الغرباء.

وقيل: هم المعتكفون فيه.

«والركَّعِ السُّجُودِ» وهم المصلون. جمع راكع وساجد.

***

ما هذا؟! هذا بيان الناس..

البيت.. هذا الذي شاده إبراهيم بيديه، وأعانه عليه إسماعيل..

هذا الذي عَيَّن مكانه رب العالمين.. وأمر إبراهيم وإسماعيل.. أن يبنياه.. وحدهما.. لا يشركا معهما أحداً من الناس.. ليكون خالصاً لله وحده..، لم يشترك في بنائه غير أخلص اثنين لله تعالى في الأرض.. إبراهيم.. وابنه..

هذا البيت.. هذا الحرم المكي. جعله الله للناس مثابة.. مجمعاً.. وأمناً.. يجتمعون فيه وهم آمنون.. ويفدون إليه وهم آمنون..

قطعة من الأرض جعلها الله سلاماً للعالمين.. حتى الطير.. حتى الحيوان.. جعله الله آمناً فيه.. ليتحقق السلام.. والأمن.. لجميع المخلوقات على وجه الأرض.. وهذا المكان.. الذي وقف فيه إبراهيم، يبني البيت، وإسماعيل يناوله الحجارة..

هذا المكان.. ينبغي أن تخلد ذكراه.. ينبغي أن يتخذه الناس مصلى. واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًى.. ليذكروا جميعاً.. أن إبراهيم إمامهم.. وقف فيه يبني لله أول بيت وضع للناس في الأرض..

وليذكروا جميعاً أن إبراهيم إمامهم جميعاً.. إني جاعلك للناس إماماً..

إمامهم لأنه إمام الحنيفية.. قائد فكرة التوجه المباشر إلى الله.. والميل عن كل شيء سواه..

﴿اجعلْ هذا بَلداً آمِناً﴾؟!

ثم يقول تعالى:

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجْعَلْ هذا بَلداً آمِناً، وارزُقْ أهْلهُ مِنَ الثَّمراتِ، مَنْ آمنَ منهُم باللَّهِ واليومِ الآخِرِ قالَ: ومَن كفَرَ، فأُمَتِّعُهُ قليلاً، ثم اضْطَرُّهُ إلى عذابِ النارِ، وبئسَ المصيرُ﴾.. [البقرة: ١٢٦].

«وإذ قال إبراهيم: رب اجعل هذا بلداً آمناً» الإشارة إلى الوادي المذكور بقوله تعالى:

﴿ربَّنا إنِّي أسكنتُ مِنْ ذرِّيَّتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عندَ بيتِكَ المحرمِ﴾..

أي: اجعل هذا المكان القفر، بلداً كاملاً في الأمن، معلوم الاتصاف بالأمن، مشهوراً به.

«وارزق أهله من الثمرات» أي من أنواعها، بأن تجعل قريباً منه قرى يحصل فيها ذلك، أو تجيء إليه من الأقطار الشاسعة.

وقد حصل كلاهما، حتى أنه تجتمع فيه الفواكه الربيعية، والصيفية، والخريفية، في يوم واحد!!

«من آمن منهم بالله واليوم الآخر» اقتصر بذكر المبدأ والمعاد لتضمن الإيمان بهما، الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به.

«قال» أي الله تعالى.

«ومَن كَفَرَ» أي وارزق من كفر أيضاً. وكأن إبراهيم - عليه السلام - قاس الرزق على الإمامة فنبهه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية لا تخص المؤمن بخلاف الإمامة.

«فأمتعه قليلاً» أي زماناً قليلاً.

«ثم اضطره إلى عذاب النار» أي أن العذاب واقع به وقوعاً محققاً حتى كأنه مربوط به.

«وبئس المصير» أي وبئس المصير النار.

أو: وبئست الصيرورة صيرورته إلى النار.

إذن تحريم مكة.. كان استجابة لدعاء إبراهيم:

﴿ربِّ اجْعَل هَذَا بَلداً آمِناً﴾..

فاستجاب الله لدعائه.. وجعلها بلداً آمناً غاية الأمن.. وفرض أن تكون كذلك إلى يوم القيامة..

وقد وقف رسول الله ﷺ يعلن ذلك في حجة الوداع.. وسيأتي تفصيله.

﴿رَبَّنا تَقبلْ مِنّا﴾؟!

ثم يقول تعالى:

﴿وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ مِنَ البيتِ، وإسماعيلُ، ربَّنا تقبَّلْ مِنَّا، إنَّكَ أنتَ السميعُ العليمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]

«وإذْ يَرْفَعُ إبراهيمُ» آثر صيغة المضارع مع أن القصة ماضية استحضاراً لهذا الأمر، ليقتدي الناس به في إتيان الطاعات الشاقة، مع الابتهال في قبولها، وليعلموا عظمة البيت المبني فيعظموه.

«القواعد من البيت» جمع قاعدة وهي الأساس، وقيل: المراد بناؤها نفسها.

«وإسماعيلُ» وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة.

وقيل: كانا يبنيان في طرفين، أو: على التناوب.

«رَبنا تَقَبَّلْ مِنّا» أي يقولان: ربنا، والمراد من التقبل الرضا فقط دون الإثابة وليس الإثابة مما يخطر لهم ببال!!

«إنك أنت السميع العليم» السميع لدعائنا، والعليم بنياتنا.

***

صورة عظيمة.. عظيمة.. عظيمة.. ينبغي أن يستحضرها كل مؤمن وهو يعمل لله.. أو يتجه إلى الله..

شيخ عجوز.. وابن شاب قوي.. رجلان.. اثنان.. لا ثالث لهما.. يبنيان الكعبة وحدهما.. ومع ما في ذلك العمل من مجهود شاق.. وتعب.. وإرهاق.. فإنهما يتوجهان في وجل.. وخوف.. إلى الله.. ويرددان: ربنا.. تقبل منا.. ثم يردفان: إنك.. أنت السميع.. العليم..

كلمات تتموج من أفواههما الشريفة.. بل من قلوبهما السليمة.. على أعلى ما يكون التصعيد.. والتوجه.. وإرادة الله.. وحده لا شريك له..

فهل تقبل الله منهما؟!

نعم.. نعم.. ثم نعم.. نعم..

وأي بيت في الأرض أعظم عند الله إلى يوم القيامة من هذا البيت الذي يبنيان؟!

أو أي بيت يرجى فيه قبول الدعاء والتوجه إلى الله من هذا الذي يدعوان؟!

لقد قبل الله منكما.. يا إبراهيم.. يا إسماعيل.. لأن قلوبكما كانت وأنتما تتجهان إليه.. خالصة له وحده..

فهذا خليله يدعوه.. وذاك ابن خليله ونبيه يرجوه!!

إن القلب السليم.. قلب إبراهيم يتجه إلى ربه بقلب سليم.. وإن

القلب السليم.. قلب إسماعيل.. الذي قدم نفسه من قبل راضياً ليذبح لله.. يتجه إلى ربه..

إنها لحظة نور انشق من الأرض إلى السماء.. فانشقت له السماوات.. وانزاحت.. لترفعه إلى ربها.. لقد تقبل منك ربك.. يا إبراهيم.. يا خليله.. يا أسلم قلب على أرضه.. يا صفوته من خلقه..

ولقد تقبل الله منك.. يا إسماعيل.. يا ذبيحه.. يا صادق الوعد.. يا صاحب مقام..

﴿يا أبتِ افعَلْ ما تُؤمَرُ ستجدُني إن شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابرينَ﴾..

وهكذا.. يفعل الإخلاص ما يشاء.. ويرفع الحجب بين العبد وبين ربه.. ويجعل له ما يشاء..

﴿واجعلنا.. مُسلِمَيْنِ.. لكَ﴾؟!

ثم يقول تعالى:

﴿ربَّنا واجعلْنا مسلمَيْنِ لكَ، ومِنْ ذُرِّيتِنا أُمَّةً مُسلِمةً لكَ، وأرِنا مناسِكَنا، وتُبْ عَلينا، إنَّكَ أنتَ التوَّابُ الرحيمُ﴾.. [البقرة: ١٢٨].

«ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لكَ» أي منقادين، قائمين بشرائع الإسلام، أو: مخلصين، موحدين لك فمسلمَيْن إما من استسلم إذ انقاد أو: من أسلم وجهه، إذا أخلص نفسه، أو قصده.

«ومن ذريتنا» واجعل من ذريتنا «أُمَّةً مسلمةً لكَ» والمراد من الأمة الجماعة أو الجيل وخصها بعضهم بأمة محمد ﷺ.

«وأرِنا مناسِكَنا» معالم الحج وقيل: مواضع الذبح وقيل: أعمالنا التي نعملها إذا حججنا.

والنُسُك غاية العبادة ثم شاع في الحج لما فيه من الكلفة غالباً، والبعد عن العادة.

(وتُبْ علينا) أي وفقنا للتوبة أو اقبلها منا.

والتوبة تختلف باختلاف التائبين، فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم على عدم العود ورد المظالم إذا أمكن، ونية الرد إذا لم يمكن.

وتوبة الخواص: الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات.

فإن كان إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ طلبا التوبة لأنفسهما خاصة، فالمراد ما هو من توبة القسم الأخير.

وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية كان الدعاء بها منصرفاً لمن هو أهلها ممن يصح صدور الذنب المخل بمرتبة النبوة منه.

﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾.

تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للإجابة.

***

واجعلنا! إنهما يرجوان الله تعالى.. مسلمَيْنِ؟! كاملي الاستسلام كاملي الانقياد.. في القمة من الإسلام..

لك؟! لك وحدك. نسلم أنفسنا لك أنت وحدك..

إنه لمقام عظيم.. مقام إبراهيم.. من هنا.. يكون المرتقى.. إلى الله..

وإن قوله تعالى:

﴿واتَّخذوا مِن مقامِ إبراهيمَ مُصَلّى﴾..

ليرمز إلى ذلك المعنى الرفيع، أي أسلموا كما أسلم إبراهيم لي.. وانقادوا كما انقاد لي.. واتجهوا إليّ كما اتجه إليَّ مباشرة.. وميلوا عن كل شيء.. واستقيموا إليَّ.. أنا.. وحدي..

إذا تم لكم الارتفاع إلى ذلك المقام.. مقام إبراهيم.. استطعتم أن ترتفعوا إليَّ بدعائكم.. وصلاتكم.. وكان دعاؤكم واصلاً إليَّ.. وصلاتكم صاعدة إليَّ..

وهكذا.. اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.. إذا ارتفعتم إلى مقامه. فصلوا لي.. وادعوني.. أستجب لكم.. ومن أجل ذلك جعلناه للناس إماماً..

لأن طريقته هي المثلى.. وهي التي تمكنكم من الاتصال بنا اتصالاً سليماً..

﴿وَابعثْ فِيهم رَسولاً﴾؟!

ثم يقول تعالى:

﴿ربّنا وابعَثْ فيهمْ رسولاً منهمْ، يتلُو عليهمْ آياتِكَ، ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ، ويُزَكيهِمْ، إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾.. [البقرة: ١٢٩].

«ربنا وابعث فيهم» أي أرسل في الأمة المسلمة.

«رسولاً منهم» أي من أنفسهم، ولم يبعث من ذرية كليهما سوى محمد ﷺ، وجميع أنبياء إسرائيل من ذرية إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

روى الإمام أحمد، وشارح السنة، عن العرباض، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(سأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني).

(وفي الأثر) أنه لما دعا إبراهيم قيل له: قد استجيب لك، وهو يكون في آخر الزمان.

«يتلو عليهم آياتك» يقرأ عليهم ما يوحى إليه من العلامات الدالة على التوحيد والنبوة وغيرهما.

وقيل: خبر من مضى ومن يأتي إلى يوم القيامة.

«ويُعَلِّمُهُم الكتابَ» بأن يفهمهم ألفاظه ويبين لهم كيفية أدائه، ويوقفهم على حقائقه وأسراره.

والظاهر أن مقصودهما من هذه الدعوة أن يكون الرسول صاحب كتاب يخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وقد أجاب سبحانه هذه الدعوة بالقرآن.

«والحكمة» أي وضع الأشياء مواضعها.

أو: ما يزيل من القلوب وهج حب الدنيا، أو الفقه في الدين، أو السنة المبينة للكتاب، أو الكتاب نفسه.

وقيل: المراد بها حقائق الكتاب ودقائقه، وسائر ما أودع فيه، ويكون تعليم الكتاب عبارة عن تفهيم ألفاظه، وبيان كيفية أدائه، وتعليم الحكمة الإيقاف على ما أودع فيه.

وفسرها بعضهم بما تكمل به النفوس من المعارف والأحكام فتشمل الحكمة النظرية والعملية.

أي يعلمهم التطبيق، كيف يطبقون ما في الكتاب في حياتهم العملية.

«ويُزَكِّيهم» أي يطهرهم من أرجاس الشرك، وأنجاس الشك،

وقاذورات المعاصي، وهو إشارة إلى التحلية.

«إنك أنتَ العزيزُ الحكيمُ» أي الغالب المحكم لما يريد.

وهكذا.. كان محمد.. رسول الله ﷺ..

***

هو استجابة دعوة أبويه إبراهيم.. وإسماعيل.. عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين..

فجاء وقرأ عليهم آياته.. وعَلَّمهم الكتاب.. والحِكمة.. وزكّاهم كما طلب إبراهيم وإسماعيل.. وأكثر مما طلبا..

فكان خاتم النبيين.. وسيد البشر.. وإمام المرسلين.. وصاحب أكبر رسالة.. وأعظم كتاب.. وأشمل منهج.. وأوضح سُنَّة.. وترك من ورائه خير أمة أخرجت للناس.. صلى الله تعالى عليه وآله وسلم..

إبراهيم.. يطلب تحريم مكة؟!

قال تعالى:

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ: ربِّ اجْعَلْ هذا البلدَ آمناً. واجنُبْني وبَنِيَّ أن نعبُدَ الأصنامَ. ربِّ إنهنَّ أضْلَلْنَ كثيراً من الناسِ. فمن تبِعَني فإنَّهُ مني. ومَن عصاني فإنّكَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦].

«وإذْ قال إبراهيم» اذكر ذلك الوقت.

«رب اجعل هذا البلد» يعني مكة، شرَّفها الله تعالى.

«آمناً» ذا أمن.

والمسؤول أولاً صلوحه للسكنى، بأن يؤمن فيه أهله في أكبر الأحوال على المستمر في البلاد.

وقيل: إن المراد منها تأكيد ما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فن آخر من جنايات القوم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث أسكنهم مكة لإقامة الصلاة، والاجتناب عن عبادة الأصنام، والشكر لنعم الله تعالى، وسأله أن يجعله بلداً آمناً، ويرزقهم من الثمرات، ويهوى قلوب الناس إليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، فكفروا بتلك النعم العظام، واستبدلوا دار البوار بالبلد الحرام، وجعلوا لله تعالى أنداداً، وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام.

«واجنُبني وبَنيّ» أي بعدني وإياهم.

«أن نعبد الأصنام» أي عن عبادتها، أي ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد، وملة الإسلام، والبعد عن عبادة الأصنام.

والصوفية يقولون: الشرك نوعان ظاهر، وهو الذي يقول به المشركون. وخفي، وهو تعلق القلب بالوسائط، والأسباب الظاهرة والتوحيد المحض قطع النظر عما سوى الله تعالى، فيحتمل أن يكون مراده ـ عليه السلام ـ من هذا الدعاء العصمة عن هذا الشرك.

ولا شك أن دعوته ـ عليه السلام ـ مجابة فيهم، أو بأن دعاءه استجيب في بعض دون بعض.

«ربِّ إنهُنَّ» أي الأصنام.

«أضللن كثيراً من الناس» أي تسببن له في الضلال.

«فمن تبعني» منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام.

«ومن عصاني» أي لم يتبعني.

«فإنك غفور رحيم» أي قادر على أن تغفر له وترحمه، ومن عصاني فلا أدعو عليه.. فإنك الخ..

وهكذا طلب إبراهيم تحريم مكة.. فحرمها الله تعالى إلى يوم القيامة!!

ثم ماذا؟

ثم يسترسل إبراهيم في دعائه..

﴿عِندَ بَيتكَ المحرَّم﴾؟!

قال تعالى:

﴿ربّنا إنّي أسكنتُ من ذرّيّتي بوادٍ غيرِ ذِي زرعٍ عندَ بيتكَ المحرَّمِ. ربّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ. فاجعَلْ أفئِدَةً مِنَ النّاسِ تهوِي إليْهِمْ. وارزُقْهُم منَ الثمراتِ. لعَلَّهم يشكُرُونَ. رَبّنا إنَّكَ تعلمُ ما نُخْفِي ومَا نُعْلِنُ. وما يَخْفى على اللّهِ مِنْ شيءٍ في الأرضِ ولا في السماءِ. الحمدُ للّهِ الذي وَهَبَ لي عَلى الكِبَرِ إسماعيلَ. وإسحاقَ. إنَّ ربّي لسميعُ الدعاءِ. ربِّ اجعَلْني مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِنْ ذُرِّيَّتي. ربّنا وتقبَّلْ دعاءِ. ربّنا اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ. وللمُؤمِنينَ يومَ يقومُ الحسابُ﴾.. [إبراهيم: ٣٧ ـ ٤١].

(ربنا) كرر النداء رغبة في الإجابة والالتجاء إليه تعالى.

(من ذريتي) بعض ذريتي، والمراد بالمسكن إسماعيل ـ عليه السلام ـ ومن سيولد له، فإن إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لإسكانهم.

(بوادٍ غيرِ ذِي زَرْعٍ) وهي وادي مكة شرَّفها الله تعالى، والمعنى ليس صالحاً للزرع.

(عند بيتك المحرَّم) معنى كون البيت محرماً أن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به.

(ربنا ليقيموا الصلاة) أي، لأن يقيموا. أي ما أسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك، وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك.

متبركين بالبقعة التي شرّفتها على البقاع متعبدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به مستنزلين رحمتك التي آثرت بها سكان حرمك.

(فاجعل أفئدة من الناس) أي أفئدة من أفئدتهم.

(تهوي إليهم) تسرع إليهم شوقاً ووداداً، وقيل: هذا دعاء بتوجيه القلوب إلى البيت.

والأفئدة جمع فؤاد، وفسروه بالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد، أي قلوباً تتوقد شوقاً إليه.

(وارزقهم) أي ذريتي الذين أسكنتهم هناك.

وجوز أن يريدهم والذين ينحازون إليهم من الناس.

(من الثمرات) من أنواعها بأن تجبى إليهم من الأقطار الشاسعة، وقد يصل كلا الأمرين حتى إنه يجتمع في مكة المكرمة البواكير، والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية، والصيفية، والخريفية في يوم واحد!

(لعلهم يشكرون) تلك النعمة، بإقامة الصلاة، وأداء سائر مراسم العبودية، واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

(ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) من الحاجات وغيرها.

وقيل: ما نخفي من حُبِّ إسماعيل وأمه، وما نعلن لسارة من الجفاء عليهما.

وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جرى بيننا وبين هاجر عند الوداع من قولها: إلى من تكلنا؟ وقولي لها: إلى الله تعالى.

أي تعلم سرنا كما تعلم علننا، والمقصود من فحوى كلامه ـ عليه السلام ـ أنَّ إظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك، بل إنما هو لإظهار العبودية والتخشع لعظمتك، والتذلل لعزتك، وعرض الافتقار لما عندك، والاستعجال لنيل أياديك.

وقيل: أراد عليه السلام: إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا بنا من أنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكن ندعوك لإظهار العبودية إلى آخره.

وقد أشاروا إلى أن ظهور الحال يغني عن السؤال بقولهم:

ويمنعني الشكوى إلى الناس أنني عليل ومن أشكو إليه عليل
ويمنعني الشكوى إلى الله أنه عليم بما أشكوه قبل أقول

لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن، بل بجميع خفايا الملك والملكوت، وقد حققه ـ عليه السلام ـ بقوله على وجه الاعتراض.

(وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) لما أن علمه تعالى ذاتي، فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلوم دون معلوم.

(الحمدُ للّهِ الذي وَهَبَ لي على الكِبَرِ) أي مع كبر سني ويأسي عن الولد والتقييد بذلك استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها.

(إسماعيلَ وإسحاقَ) روي أنه وهب له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووهب له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة.

(إن ربي) ومالك أمري.

(لسميع الدعاء) أي لمجيبه، فالسمع بمعنى القبول والإجابة مجاز كما في سمع الله لمن حمده.

يتوسل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه، كأنه عليه السلام يقول: اللهم استجبت دعائي في حق ذريتي في هذا المقام، فإنك لم تزل سميع الدعاء، وقد دعوتك على الكبر أن تهب لي ولداً فأجبت دعائي ووهبت لي إسماعيل وإسحاق.

(ربِّ اجعلني مُقيمَ الصلاةِ) وأراد بهذا الدعاء الديمومة على ذلك، أي مواظباً عليها.

(ومن ذريتي) للإشعار بأنه المقتدى في ذلك، وذريته أتباع له، فإن ذكرهم بطريق الاستطراد.

وإنما خص - عليه السلام - هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهته تعالى أن بعضاً منهم لا يكون مقيم الصلاة، بأن يكون كافراً، أو مؤمناً لا يصلي.

(ربنا وتقبَّلْ دُعاءِ) ظاهره دعائي.

وقيل: الدعاء بمعنى العبادة، أي تقبل عبادتي.

(ربنا اغفرْ لي) أي ما فرط مني مما أعده ذنباً.

(ولِوالِدَيّ) أي لأمي وأبي، وكانت أمه - على ما روي - مؤمنة فلا إشكال في الاستغفار لها.

وأما استغفاره لأبيه فقد قيل في الاعتذار عنه: إنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه، والله تعالى قد جلى ما قاله - عليه السلام - في أحايين مختلفة.

وفي قراءة: ولِوَلَدَيَّ، يعني بهما إسماعيل وإسحاق. ويكون قد دعا - عليه السلام - لذريته.

(وللمؤمنين) كافة من ذريته وغيرهم.

(يوم يقومُ الحسابُ) أي يثبت ويتحقق.

إبراهيم.. يُحدِّدُ حدود الحرم؟!

عن ابن عباس:

(إن جبريل - عليه الصلاة والسلام - أرى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - موضع أنصاب الحرَم، فنصبها.

(ثم حددها إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - ثم حددها قصي بن كلاب.. ثم حددها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(فلما ولي عمر - رضي الله عنه - بعث أربعة من قريش، فنصبوا أنصاب الحرم).

قالوا: (وحرم مكة هو ما أحاطها من جوانبها).

(وجعل الله حُكمه في الحرمة تشريفاً لها. وحدّه من المدينة على ثلاثة أميال. ومن اليمن والعراق على سبعة.

(ومن الجدة على عشرة).

وهكذا.. حدّد إبراهيم حدود الحرم.. وجعله شيئاً معلوماً للجميع.. وأصبح هناك مكان معين من الأرض محرماً إلى يوم القيامة.. مكان يتوسطه بيت الله.. ويأمن فيه جميع الناس.. وجميع المخلوقات..

مَن الذي حرَّمَها؟!

من الذي حرم هذا المكان؟

هل هو إبراهيم؟

كلا.. فإن إبراهيم لا يملك ذلك.. إنما هو نبيّ يرجو ذلك. ليس إلا..

إذن من الذي حرّمها؟!

قال تعالى:

﴿إنَّما أُمِرْتُ أن أعبُدَ ربّ هذِهِ البَلدةِ الذي حَرَّمَها. ولهُ كلُّ شيْءٍ. وأُمِرْتُ أنْ أكونَ من المسلمينَ﴾ [النمل: ٩١].

اختص الله تعالى مكة من بين جميع البلاد بإضافة اسمه إليها، لأنها أحب بلاده إليه، وأكرمها عليه، وأعظمها عنده حيث أن حرمها لا يسفك فيها دم حرام، ولا يظلم فيها أحد، ولا يهاج صيدها، ولا يختلى خلاها.

(إنما أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة) أي إني أخص رب هذه البلدة بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً، والبلدة مكة.

وأشار إليها إشارة تعظيماً لها، وتقريباً، دالاً على أنها موطن نبيه، ومهبط وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو.

ووصفها بأنها محرمة، لا ينتهك حرمتها إلا ظالم، مضاد لربه.

(وله كل شيء) خلقاً وملكاً، وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته.

(وأمرت) أن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام..

إن الله تعالى هو الذي حرَّم مكة.. وإنما إبراهيم دعا.. وطلب.. والله تعالى استجاب.. وأمر.. فكانت حراماً إلى يوم القيامة!!

﴿أَوَلَمْ نمكن لهمْ حَرَماً آمِناً﴾؟!

وقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لهُمْ حَرَماً آمِناً، يُجْبَى إليْهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ، رزْقاً مِن لدُنَّا، ولكنَّ أكْثرَهُمْ لا يعلمونَ﴾. [القصص: ٧٥].

وصف الله تعالى الحرم بالأمن، ومَنَّ على عباده بأن مكَّن لهم هذا الحرم.

وروى النسائي في التفسير:

«إن الحارث بن عامر بن نوفل قال للنبي ﷺ:

﴿أن نَتبعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخطَّفْ مِنْ أرْضِنا﴾..

فأنزل الله عز وجل رداً عليه:

﴿أولم نُمَكِّن لهم حَرَماً آمناً﴾.. الآية.

معناه جعلهم الله في بلد أمين، وهم منه في أمان في حال كفرهم، فكيف لا يكون لهم أمن بعد أن أسلموا وتابعوا الحق؟

(آمِناً) ذو أمن يأمن الناس فيه، وذلك أن العرب في الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض، وأهل مكة آمنون في الحرم من السبي والقتل والغارة.

أي: فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمن.

(يُجبى إليه) أي إلى الحرم، أي تجلب وتحمل من النواحي.

(ثمراتُ كُلِّ شيءٍ رِزقاً مِن لدُنَّا) أي من عندنا ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون أن الله تعالى هو الذي فعل بهم فيشكرونه.

رسول اللَّهِ يعلن.. «أنَّ هذا البلدَ حرَّمهُ اللَّهُ»؟!

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

قال رسول الله ﷺ يومَ فتحِ مكةَ:

«إنَّ هذا البلدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ

«لا يعْضَدُ شَوْكَهُ

«ولا ينَفَّرُ صيدُهُ

«ولا يَلتقِطُ لقَطَتَهُ إلا منْ عَرَّفَها». . [البخاري].

(إن هذا البلد حرمه الله) فيه تعظيم له، وتعظيمه يدل على فضله، واختصاصه من بين سائر البلاد، حرمه الله، أي جعله حراماً.

ولفظ البخاري في باب غزوة الفتح:

«إن رسول الله ﷺ قام يوم الفتح فقال: إن الله حرم مكة، يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام الله تعالى إلى يوم القيامة» الحديث.

فإن قلت: إن قوله ﷺ:

«إن إبراهيم عليه السلام حرم مكة وأنا أُحرم ما بين لابتيها».

أي لابتي المدينة يعارض هذا الحديث.

قلت: ليس الأمر كذلك، لأن معنى قوله (إن إبراهيم حرّم مكة) أعلن بتحريمها، وعرف الناس بأنها حرام بتحريم الله إياها، فلما لم يعرف تحريمها إلا في زمانه على لسانه أضيف إليه، وذلك كما في قوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ﴾ . .

فإنه أضاف إليه التوفي.

وفي آية أخرى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الموتِ﴾ . .

أضاف إليه التوفي.

وقال في آية أخرى:

﴿الذينَ تَتوفَّاهم الملائكةُ﴾ . .

فأضاف إليهم التوفي . .

وفي الحقيقة المتوفي هو الله عز وجل، وأضاف إلى غيره لأنه ظهر على أيديهم.

(لا يعضد شجرها) أي لا يقطع.

(ولا ينفر صيده) أي لا يزعج من مكانه، وهو تنبيه من الأدنى إلى الأعلى، فلا يضرب ولا يقتل بالطريق الأولى.

(ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها) إنها لقطة فيلتقطها ليردها إلى صاحبها ولا يتملكها.

والآن. . ماذا في هذا الحديث؟

فيه أن مكة حرام، فلا يجوز لأحد أن يدخلها إلا بالإحرام، وهو قول الجمهور من الفقهاء، وفيه أنه لا يجوز قطع شوكه ولا قطع شجره.

وقال ابن المنذر: أجمع العلماء على تحريم قطع شجر الحرم، وفيه أنه لا يجوز رفع لقطتها إلا لمنشد، أي لا تحل إلا لمن يعرفها.

لماذا جعل الله الكعبة.. قِياماً للناسِ؟!

قال تعالى:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ، البَيتَ الحرَامَ، قِياماً للناسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

أشار فيه إلى أن قوام أمور الناس، وانتعاش أمر دينهم، ودنياهم بالكعبة المشرفة يدل عليه قوله (قياماً للناس).

فإذا زالت الكعبة تختل أمورهم وأشار به إلى تعظيم الكعبة وتوقيرها، يدل عليه قوله (البيتَ الحرامَ) حيث وصفها بالحرمة، كما أشار به إلى أن الكعبة لا تنقطع الزوار عنها.

(البيتَ الحرامَ) نصب على أنه عطف بيان على جهة المدح، لا على التوضيح.

(قِياماً) أي عماداً للناس في أمر دينهم ودنياهم، ونهوضاً إلى أغراضهم ومقاصدهم، في معاشم ومعادهم، لما يتم لهم أمر حجهم وعمرتهم وتجارتهم وأنواع منافعهم.

وعن عطاء: لو تركوها عاماً واحداً لم يُنظروا ولم يتجروا. وقيل قياماً أي معالم للحق. وقيل: يعني عَلَماً لقبلتهم يصلون إليها. وقيل: صلاحاً لدينهم.

والآن.. لماذا كل هذا؟

لأن الكعبة هي النقطة.. هي مركز الدائرة.. الذي فرض الله تعالى على الناس جميعاً أن يتوجهوا إليه.

ولكن لماذا يتجه الناس جميعاً إلى هذه النقطة؟

وما وجه الأهمية في ذلك؟!

ليكون رمزاً إلى توجههم جميعاً.. إلى الله.. الذي خلقهم.. وإلى تلك المعاني البعيدة.. العزيزة.. الرفيعة.. يشير قوله تعالى.

﴿حَيثُ ما كُنتُم.. فولُّوا وجُوهَكم شطرَهُ﴾

قال تعالى:

﴿ومِنْ حيثُ خرجْتَ فولِّ وجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحرامِ، وحيثُ ما كُنتُمْ فوَلُّوا وُجُوهَكمْ شَطْرَهُ، لِئلاَّ يكونَ للنَّاسِ عليكُمْ حُجَّةٌ، إلاَّ الَّذينَ ظلمُوا منهُمْ، فلا تخشَوْهُمْ واخشَوْنِي، ولأُتِمَّ نِعْمَتي عليكمْ، ولعلَّكُمْ تهتدونَ﴾.. [البقرة: ١٥٠].

(ومِنْ حيثُ خَرَجتَ) أي ومن أي بلد خرجت للسفر، فَولِّ وجهك شطر المسجد الحرام إذا صليت.

(وحيثُ ما كنتم فَولُّوا وجوهَكم شَطْرَهُ) أمر إلى الجميع أن يتوجهوا إلى المسجد الحرام حيث ما كانوا.. في أي مكان كانوا.. عليهم أن يتجهوا إليه..

لماذا؟

رمزاً للاتجاه إلى رب ذلك البيت؟.

لماذا؟

إن السر كامن في نفس قوله تعالى:

﴿وحيثُ ما كُنتم فولُّوا وجوهَكُمْ شَطرهُ﴾..

في أي مكان تكونوا.. وفي أي زمان تكونوا.. عليكم أن تتجهوا بوجوهكم شطره.

شطر من؟ شطر الله.

إذن هناك تربية عالية جداً.. إن الله يأمر كل مؤمن أن يتجه في صلاته إلى الكعبة، وأن يوجه وجهه إليها.. مهما كان مكانه في الأرض وزمانه.. وهو يصلي.

ليركز في أعماق كل مؤمن ومؤمنة أن الاتجاه ينبغي أن يكون إلى رب ذلك البيت.. إلى الله.. إنها نقطة.. يتجه إليها الجميع.. لتعلمهم.. وتركز في نفوسهم أن عليهم أن يتجهوا إلى الله وحده.. جميعاً.

فما أجمل التربية.. وما أعظم التوجيه.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون!!

لماذا التحول إلى قبلة إبراهيم؟!

قال تعالى:

﴿وكذلِكَ جَعلناكمْ أُمّةً وَسَطاً، لِتكُونُوا شُهداءَ على الناسِ. ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً﴾.. [البقرة: ١٤٣].

(وكذلِكَ جَعلناكمْ أُمّةً وَسَطاً) أي كما اخترنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأولاده، وأنعمنا عليهم بالحنيفية جعلناكم أمة وسطاً.

وقال ابن كثير في تفسيره:

يقول الله تعالى:

«**إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل**».

والوَسَط العَدْل، أي كذلك جعلناكم أمة عدولاً، أمة عدلاً.

وروي أن الرب عز وجل وصفهم بذلك لتوسطهم في الدين، فلا هم

أهل غلو فيه كالنصارى، ولا هم أهل تقصير فيه كاليهود.

قلت: إنما حول الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة إبراهيم..

إلى الكعبة.. ليعلم الجميع أن إبراهيم إمامهم.. وأن طريقته.. وأسلوبه.. وهي الحنيفية.. هي الطريقة.. وهو الأسلوب المأمورون جميعاً باتباعه، بل التي لا يرضى الله سواها للناس ديناً.

﴿ورضيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً﴾.. لقد شرع إبراهيم للناس جميعاً الحنيفية.. وجاء محمد ﷺ.. يجدد دعوة أبيه إبراهيم.. ويدعوهم إلى الحنيفية السمحة.. ملة أبيكم إبراهيم..

فكان أمراً طبيعياً.. وحكماً منطقياً.. أن يُؤمر محمد ﷺ.. وتؤمر أمته.. أن يتجهوا إلى الكعبة.. إلى قبلة إبراهيم.. إشارة إلى اتحاد الاتجاه.. وإلى وحدة الطريق.

وإلى أن هذا الأسلوب، الذي جاء به إبراهيم.. والذي بعث محمد ﷺ.. ليجدده ويدعو الناس جميعاً إليه.. هو العدل.. وهو وحده المرضي عند الله.

﴿ومَنْ يَبْتغِ غيرَ الإسلامِ دِيناً فلن يُقْبَلَ منهُ﴾ أي من يعبد الله على أسلوب غير أسلوب إبراهيم.. غير ملة إبراهيم.. وهي نفسها ملة محمد.. التي سماها الإسلام.. فلن يقبل منه.

﴿ومَنْ يرغَب عنْ مِلَّة إبراهيمَ إلاّ مَن سَفِهَ نفسه﴾؟!

﴿اتَّبِعْ ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً.. وما كانَ منَ المشرِكينَ﴾..

إذن هذه الملة.. أو هذا الأسلوب.. هو العدل.. الذي يرتضيه الله..

وكذلك جعلناكم أمة وَسَطاً.

هكذا جعلناكم يا من اتبعتم محمداً ﷺ.. أمة عدلاً.

لماذا؟!

لأنكم اتبعتم ملة إبراهيم.. اتبعتم الحنيفية.. حنفاء لله.. غير مشركين به..

فأنتم شهود على غيركم.. أنتم الميزان الذي يقيس الناس جميعاً عليه أنفسهم.. فيتبين لهم إن كانوا على هُدى، أم في ضلال مبين.

ومن أجل ذلك حولناكم إلى قبلة إبراهيم.. إعلاناً لاتحادكم معه في الأسلوب!!

مناسك الحج تخليداً لذكرى مواقف إبراهيم وإسماعيل؟!

هل هذا صحيح؟!

هل هذه القضية على إطلاقها؟

هل صحيح.. أن فرضية الحج.. وأن جميع ما فيها من مناسك.. إنما كانت تخليداً لذكرى مواقف إبراهيم وإسماعيل؟!

لقد تأكد لي ذلك.. وأنا أجوس خلال تلك المباحث عن إبراهيم.. بما لا يدع إلى الشك أدنى سبيل.

وإليكم البيان..

أولاً.. ما هو الحج؟

الحج فريضة افترضها الله على عباده من استطاع إليه سبيلاً.. واعتبر من قعد عنها بغير عذر كافراً.

فما هو هذا الحج؟ الذي وعد الله ورسوله عليه غفران الذنوب جميعاً؟

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»؟

هو أن يتوجه الإنسان في أيام معلومة من السنة إلى بيت الله الحرام.. حتى إذا كان يوم التروية خرج من مكة، حتى إذا كان اليوم التاسع وقف بعرفة ملبياً.. ثم يعود فيرمي الجمرات.. وينحر ضحاياه.. ثم يعود إلى مكة.. ثم يتحلل..

فما هذا؟

أولاً.. تجري المناسك كلها في الحرم.. هذا من حيث المكان..

ثانياً.. يلبس الإنسان ملابس الإحرام.. وينخلع من زينته.. وهذا إشارة إلى خلعه للدنيا.. وإقباله على الله.. ثم طواف القدوم حول الكعبة.. فيه تجديد العهد مع الله.. صاحب هذا البيت.. ثم السعي بين الصفا والمروة..

فيه تخليد لذكرى سعي هاجر بينهما بحثاً عن الماء.. ثم الخروج إلى عرفات للجوار إلى الله.

فيه التوجه الصادق إلى الله.. فيه الحنيفية التي هي صلب ملة إبراهيم.. ومخها.

أمواج من البشر الحفاة العراة.. يتدافعون إلى جبل.. إلى صحراء.. يبتهلون إلى الله.. ويلبون..

فما معنى هذا؟!

هذه هي الحنيفية التي يريدها إبراهيم.. والتي بَعَثَ الله بها محمداً ﷺ..

ولذلك قال ﷺ:

«الحج عرفة»..

لأنه المقام الذي تتحقق فيه الحنيفية.. حيث يسقط الإنسان كل الوسائط.. وكل الأسباب.. وكل الحجب.. ويتجه إلى الله مباشرة.. مائلاً عن كل شيء.. حنيفاً لله وحده.

ومتى تم ذلك منه.. فقد حج.. فقد أسقط كل ماضيه بعفوناته، وقاذوراته، ونجاساته.. وفتح صفحة جديدة في علاقاته بربه.. تماماً كما يبدأ الطفل المولود حياة جديدة لا ماضي لها..

تماما كما قال ﷺ:

«رجع كيوم ولدته أمه»..

ثم ماذا؟

ثم رمي الجمار.. تمجيد لذكرى إبراهيم.. والشيطان يعرض له ليصده عن ذبح ابنه..

عن طاعة أمر ربه.. وإبراهيم يرميه بالحجارة تأكيداً لإعراضه عن وسوسته.

وكما يعاود الشيطان ويكرر وسوسته للإنسان.. والإنسان لا ييأس...

فإن الله فرض أن نرمي الجمار.. ونكررها في يومين.. أو ثلاثة ليعلمنا المثابرة.. ومصابرة جهاد الشيطان.. حتى ييأس أن نعبده.. أو نطيعه في أمر من أمورنا.

ثم ماذا؟!

ثم ذبح الأضاحي والهَدْي.. تذكيراً بذبح إسماعيل... وفداء الله له بذبح عظيم...

وكيف أن الإخلاص ارتفع في الأب والابن إلى مستوى جعلهما

يستسلمان في أشق أمر.. أن يذبح الأب ابنه بيده.. وأن يصبر الابن على الذبح!!

ثم ماذا؟

ثم طواف الإفاضة.. حول الكعبة.. تجديداً للعهد مع رب البيت.. وتجديد تخليد ذكرى مؤسس هذا البيت..

ثم طواف الوداع عند مغادرة مكة

كأن الإنسان يؤكد لله أنه على العهد سوف يكون.. وعلى الحنيفية سوف يستقيم!!

أليس هذا هو الحج؟

فماذا فيه؟

فيه أنه تخليد لسلسلة الطاعات التي صدرت عن إبراهيم، أو اشتقت عنه..

وهو ينفِّذ أوامر ربه..

كلمات ربه..

وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾.. من أجل أنك يا إبراهيم على خير أسلوب أحبه وأرتضيه.. أسلوب الحنيفية.. أسلوب الاتجاه المباشر إليَّ.. أسلوب إسقاط كل شيء من قلبك.. وتخصيصه لي أنا وحدي..

ومن أجل أني أمرتك فأطعت.. وسلمت تسليماً..

من أجل أني أمرتك أن تدع طفلاً وأمه في صحراء لا ماء فيها ولا غذاء.. فأطعت..

ومن أجل أني أمرتك حين بلغ ذلك الطفل معك السعي أن تذبحه، فأطعت.. وشرعت في ذبحه.

ومن أجل أنّا أمرناك أن تقيم لنا بيتاً.. ويعينك على إقامته إسماعيل..

فأقمته.. وأنت في أعلى مقامات الإخلاص لنا.. وسألتنا أن نتقبل منك.. ودعوتنا أن نجعل أفئدة من الناس تهوي إليه.

ومن أجل أنّا أمرناك أن تؤذن في الناس بالحج فأذَّنت...

ومن أجل أن سألتنا أن نجعل هذه البلدة حرماً آمناً.. فاستجبنا لك...

ومن أجل أنك وفيت في كل ما أمرناك به.. وفي كل مقامات قلبك.. وأنت تتجه إلينا...

من أجل ذلك كله جعلناك للناس إماماً...

وأمرناهم جميعاً أن يتبعوا ملتك...

ووجهناهم جميعاً إلى قبلتك.. وأمرنا خيرهم جميعاً.. محمداً ﷺ.. أن يتبع ملتك...

ثم فرضنا عليهم جميعاً أن يحجوا.. أن يقصدوا تلك الأماكن التي باشرت فيها تنفيذ أوامرنا.. وأخلصت فيها الإخلاص كله لنا.

وفرضنا عليهم فيها شعائر ومناسك.. لتذكرهم مواقفك.. ولعلها ترفعهم إلى إدراك مقاماتك وأنت تباشر الإسلام لنا.. وتأتي طاعاتنا...

وفرضنا عليهم العمرة.. زيارة البيت الحرام.. ليذكروا في أوقات غير الحج عظائم تلك الأمور.

وجعلنا تلك الشعائر.. رموزاً تربطهم بأفعالك.. لعلها ترفعهم إلى حالك...

لعلها تمكنهم من إدراك حقوقنا عليهم.. وكيف يسلكون السبيل إلينا.

ثم أجزلنا لهم العطاء.. لقاء ما يقومون به في تلك المناسك.. ووعدناهم أن يعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم إذا أدوا ما عليهم فيها..

ليبدأوا صفحة جديدة.. حياة جديدة.. بقلوب سليمة كقلبك.. وحنيفة سمحة كملتك.

تلك إشارات إلى ما في تلك الفريضة العظمى.. فريضة الحج.. وكأنها كلها تؤكد.. أنها من أولها إلى آخرها.. كانت تذكيراً.. بما صدر عن إبراهيم...

ومتى تذكر الإنسان إخلاص إبراهيم.. فقد أدرك طريقه إلى ربه...

أدرك الحنيفية التي دعا إليها إبراهيم...

أدرك معنى قوله وهو يؤدي تلك الفريضة:

«لبيك اللهم لبيك»..

ومتى استقام كل ذلك في قلب الإنسان.. فقد أصبح أهلاً لأن يغفر له.. وأن يسقط عنه ماضيه كله بظلماته.

والآن أنادي بأعلى صوت يستطيعه إنسان:

أي إخلاص كان بقلبك.. يا إبراهيم فانبثقت عنه تلك الأنوار السرمدية؟!!

وأيّ صدق كان منك يا إسماعيل.. فجعل الله.. فداءك مَنسكاً.. وسَعْيَ والدتك بين الصفا والمرْوَة.. من شعائر الله؟!!!

ذُرِّية.. إسماعيل؟!

قال:

ابن كثير.. في كتابه (قصص الأنبياء):

«نشرع الآن في الكلام على تفضيل ذرية إبراهيم عليه السلام.. لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب..

«فكل نبيّ أرسل بعده فمن ولده..

«وقد كان للخليل بنون..

«ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان..

«أسنهما وأجلهما.. الذي هو الذبيح.. إسماعيل.. بِكْر إبراهيم الخليل.. من هاجرَ.. المصرية.. عليها السلام..

«وذكر علماء النسب.. أنه أول من ركب الخيل.. وكانت قبل ذلك وحوشاً، فأنسها وركبها..

عن عبدالله بن عمر..

«أن رسول الله.. ﷺ.. قال:

«اتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل».

«وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة.. وكان قد تعلمها من العرب العاربة.. الذين نزلوا عندهم بمكة من جُرْهُم والعماليق وأهل اليمن، من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل..

«عن النبيّ . . ﷺ . . أنه قال:

«أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة . .

«وقد قدمنا أنه تزوج لما شب امرأة من العماليق . . وأن أباه أمره بفراقها . . ففارقها . .

«ثم نكح غيرها، فأمره أن يستمر بها . . فاستمر بها . .

«وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجُرْهُمي . . وقيل هذه ثالثة . .

«فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً . .

«وقد سماهم محمد بن إسحاق، رحمه الله، وهم:

«نابت . .

«وقيذر . .

«وازيل . .

«وميشى . .

«ومسمع . .

«وماش . .

«ودوصا . .

«وارر . .

«ويطور . .

«ونبش . .

«وطيما . .

«وقيذما..

«وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم...

«وكان إسماعيل عليه السلام.. رسولاً.. إلى تلك الناحية وما والاها.. من قبائل جُرْهُم والعماليق وأهل اليمن، صلوات الله وسلامه عليه..

«ولما حضرته الوفاة.. أوصى إلى أخيه إسحاق.. وزوج ابنته (نسمة) من ابن أخيه (العيص) ابن إسحاق..

«ودُفن نبي الله.. إسماعيل.. بالحِجْر.. مع أمه هاجر..

«وكان عمره يوم مات.. مائة وسبعاً وثلاثين سنة..

«ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال:

«شكا إسماعيل ـ عليه السلام ـ إلى ربه عز وجلّ.. حرّ مكة..

«فأوحى الله إليه:

«إني سأفتح لك باباً إلى الجنة.. إلى الموضع الذي تدفن فيه.. يجري عليك روحها إلى يوم القيامة»...

«وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه: نابت.. وقيذار».

وقال ابن الأثير:

ذكر خبر ولد إسماعيل بن إبراهيم

«قد ذكرنا فيما مضى سبب إسكان إسماعيل الحرم... وتزوُّجه امرأة من جُرْهم.. وفراقه إياها بأمر إبراهيم...

«ثم تزوّج أخرى..

«وهي السيّدة بنت مُضاض الجُرْهمي...

«وهي التي قال لها: قولي لزوجك: قد رضيتُ لك عتبة بابك...

«فولدت لإسماعيل اثني عشر رجلاً..

«نابت.. وقيذار.. واذيل.. وميشا.. ومسمع.. ورما.. وماش.. وآذر.. وقطورا.. وقافس.. وطميا.. وقيدمان...

«وكان عمر إسماعيل ـ فيما يزعمون ـ سبعاً وثلاثين ومائة سنة.

«ومن نابت وقيذار.. ابني إسماعيل.. نشر الله العربَ...

«وأرسله الله تعالى إلى العماليق وقبائل اليمن...

«ولما حضرتْ إسماعيلَ الوفاةُ.. أوصى إلى أخيه إسحاق.. وزوج ابنته من العيص بن إسحاق....

«ودُفن عند قبر أمه هاجر بالحِجْر.».

***

وقال ابن هشام في سيرته:

«.. وَلَدَ إسماعيلُ.. بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ اثني عشر رجلاً...

«وكان عُمر إسماعيل ـ فيما يذكرون ـ مِئة سنة وثلاثين سنة...

«ثم مات.. رحمة الله وبركاته عليه...

«ودُفِن في الحِجْر.. مع أمِّه هاجر.. رحمهم الله تعالى[1]...

---

(١) الحِجر: حِجر الكعبة. هو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام. وحجرت على المواضع ليعلم أنه من الكعبة فسمي حِجراً لذلك.. لكن فيه زيادة على ما في البيت.. وقد كان ابن الزبير أدخله في الكعبة حين بناها... فلما هدم الحَجّاج بناءه.. رده إلى ما كان عليه في الجاهلية.

«فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان..

«وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل..

«ويقول: إسماعيل أبو العرب كلها..

«فولَدَ نابتُ بن إسماعيل: يَشْجُبَ بن نابت..

«فولَدَ يشجب: يَعْرُب بن يشجب..

«فولَدَ يعرب: تَيرَح بن يعرب..

«فولَدَ تَيرح: ناحُورَ بن تيرح..

«فولَدَ ناحور: مُقَوّم بن ناحور..

«فولَدَ مُقَوّم: أُدَد بن مقوّم..

«فولَدَ أُدَد: عدنان بن أُدَد..

«فمن عدنان.. تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام..

***

ثم يمضي ابن هشام.. في سرد تسلسل الأنساب... من إسماعيل.. عليه السلام.. حتى يقول:

«فولد كِنانة بن خُزَيمة أربعة نفر:

«النَضْر بن كِنانة..

«ومالك بن كِنانة..

«وعبد مناة بن كِنانة..

«ومِلْكان بن كِنانة..

«النَّضر: قريش.. فمَن كان من ولده فهو قرشيّ.. ومَن لم يكن من ولده فليس بقرشيّ...

«وإنما سميت قريش قريشاً.. من التَّقَرش.. والتقرش: التجارة والاكتساب..».

ثم يمضي في سرد التسلسل حتى يصل إلى عبد المطلب بن هاشم فيقول:

«أولاد عبد المطلب بن هاشم:

«فولد عبدُ المطلب بن هاشم.. عشرَة نفر.. وستّ نِسْوة:

١ ـ «العبَّاس..

٢ ـ «وحمزة..

٣ ـ «وعبدالله..

٤ ـ «وأبا طالب..

٥ ـ «والزُّبير..

٦ ـ «والحارث..

٧ ـ «وحَجْلا..

٨ ـ «والمقوّم..

٩ ـ «وضرارا..

١٠ ـ «وأبا لهب ـ واسمه عبد العُزى ـ..

١ ـ وصَفِية..

٢ ـ «وأم حَكيم البيضاء..

٣ ـ «وعاتكة..

٤ ـ «وأُمَيمة..

٥ ـ «وأَرْوَى..

٦ ـ وبَرَة..».

***

ويمضي ابن هشام.. حتى يصل إلى مِسْك الختام فيقول:

«فولَدَ عبدُ الله.. بنُ عبد المطلب..

«رسول الله ﷺ..

«سيّد ولد آدم..

«محمد.. بنَ عبدالله.. بن عبدالمطلب..

«صلوات الله وسلامه ورحمتُه وبركاته عليه وعلى آله..

«وأمُّه: آمنةُ بنت وَهب.. بن عبد مناف.. بن زُهرة.. بن كلاب.. ابنُ مرّة.. بن كعْب.. بن لُؤَي.. بن غالب.. بن فِهْر.. بن مالك.. بن النّضر..

قال ابن هشام:

«فرسول الله ..ﷺ أشرفُ وَلَد آدم حسباً..

«وأفضلهم نسباً..

«من قِبَل أبيه.. وأمّه ..ﷺ».

شخصية.. إسماعيل.. عليه السلام؟!

ذلكم أبوه:

مَن هو والد إسماعيل؟!

هل تعرفه؟!

إنه إبراهيم!!

ومَن إبراهيم هذا؟!

شيء وراء التصور والإدراك!!

لماذا.. أليس بَشَراً؟!

بلى.. هو بَشَر.. ولكن هو إمام الناس جميعاً.. وإمام التوحيد وأستاذ الإخلاص..

أثنى عليه ربه في أكثر من سبع وثلاثين موضعاً من كتابه الكريم!!

مِن إبراهيم هذا.. كان إسماعيل.. الولد البِكْر.. للخليل عليهما السلام!!

ذلكم أبوه.. فانظر ماذا ورِث إسماعيل من صفات أبيه العُليا.. وكلّ صفات الخليل عُليا!!

وتلكم أُمّه:

هي هاجر، المصرية..

والمصريات يشتهرن بالجمال والرِّقّة..

تلك الخالدة الرائعة.. سوف ترى من سموّها عَجَباً!!

فانظر ماذا ورث إسماعيل.. من أُمّه.. وما أثر ذلك في تكوينه؟!

فحملها إلى جبال فاران:

وأخذهما إبراهيم.. الأمّ ورضيعها إسماعيل..

وتركهما وحدهما.. في جبال مكة.. حيث لا حياة ولا أحياء!!

حيث يواجهان هلاكاً محقّقاً!!

هذا هو الجوّ الذي نبت فيه الجميل.. إسماعيل!!

وتركهما الخليل.. ووَلّى!!

ونادته أمّ إسماعيل: يا إبراهيم.. أين تذهب.. وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟!

صمت تام.. من إبراهيم!!

فقالت له ذلك مراراً!!

وجعل لا يلتفت إليها!!

استاذ التوحيد، يُلقنها درساً عميقاً في التوحيد، ولكنها لم تفهم بعد!!

مَن هؤلاء الناس؟! إنهم أهل البيت..

﴿رَحمَتُ اللَّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيهِمْ أهْلَ البَيْتِ.. إنَّهُ حميدٌ مجيدٌ﴾!!!

وأخيراً فَهمَت أُمُّ إسماعيل.. فقالت له:

آللهُ الذي أمَرَكَ بهذا؟!

قال الخليل.. الجليل.. العظيم:

نَعَمْ!!!

انظر، جمال النبوة وجلالها؟!

كلمة واحدة، لا زيادة عليها!!

فماذا قالت الكريمة أُمُّ إسماعيل!

قالت: إذَنْ لا يُضَيِّعنا!!!

التوحيد كله، في نُطْقِها هذا!!

مشهد جميل، ليس كمثل جماله جمال!

مشهد ﴿إنِّي أسكنتُ مِن ذُرِّيَّتي﴾

فانطلق إبراهيم..

حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة، حيث لا يرونه..

استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات.. ورفع يديه.. فقال:

﴿رَبِّ....

«إنِّي أسكنتُ مِن ذُرِّيَّتي..

«بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ..

«عِندَ بيتِكَ المحرَّمِ﴾..

انظر آداب الأنبياء.. وتَعَلَّمْ!!

حيث لا يرونه؟! شيء بينه وبين خليله، فلا ينبغي أن يراه أحد سواه!!

بِوادٍ غَيْرِ ذي زرْعٍ؟!

إذنْ فالعقل يقول: هلاكهم محقَّق!!

ولكن الله هو الذي أمَر..

إذن سوف لا يُضيعهم!!

مشهد «عطشت.. وعطش ابنها»

هذه لوحة فنية.. مقدسة.. نسيجها من خيوط النور المقدس..

حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء.. عَطِشَتْ.. وعَطِش ابنُها!

ها هو الرضيع الطاهر الجميل.. يحترق عطشاً!!

قارن بين نشأة إسماعيل.. وبين أولئك الأطفال على مستوى العالم.. يرفلون في الحرير والنعيم..

واعلمْ بعد ذلك: لماذا عظمة الأنبياء.. ومِن أي ينابيع التربية العُليا ينشأون؟!!

مشهد «رضيعٌ يحتضرُ عطشاً»؟!

وجعلت تنظر إليه يتلوّى!!

أوْ قال: يَتَلَبّطُ..

فانطلقَتْ، كراهيةَ أن تنظُرَ إليهِ!!

وأيّ أمٍّ تستطيع أن تنظر إلى رضيعها، وهو يموت بين يديها عَطَشاً، ولا تستطيع له شيئا؟!

ألا يوجد قطرة ماء، قطرة واحدة؟!

لا ماءَ على الإطلاق!!

ولا أحَدَ على الإطلاق!

وجَفَّت ثدياها، وجفَّ فَمُها..

فلا لَبن لتُرضعه، ولا ماء لتسقيه!

عليها أن تشهد، موت ابنها، ولا تستطيع له غَوْثاً!

هذه هي اللوحة المقدسة.. أيها الفَنَّانون.. إن أردتم أن ترفعوا مستوى لوحاتكم... فارسموا!!

أم.. على سفحِ الصَّفا.. تنظر؟!

«فوَجدَتِ الصَّفا.. أقربَ جَبَلٍ في الأرضِ يَليها..

«فقامَتْ عليْهِ..

«ثم استقبلتِ الوادِيَ، تنظرُ: هل تَرَى أحَداً!

«فلم ترَ أحداً!!

وهذه لوحة مقدسة أخرى، أيها الفنانون، يا مَن لا فنَّ عندكم إلا فنون الجنس والإثارة في حقارة!!

ارسموها.. تلك الخالدة، وهي هالعة، تبكي، تقف وحدها، على سفح الصَّفا.. هَلْ مِن أحَدٍ.. ولا أحَد!!

وإسماعيل هناك.. على مقربة منها، على بُعد أمتار.. حيث كانت بعد ذلك زمزم، ينشغ للموت، يعلو صدره وينخفض في شدة، استعداداً للموت!!

ونزلت باكية من الصَّفا، وجعلت تنظر إلى رضيعها يحتضر..

«فلم تُقِرّها نفسُها»..

أي لم تستطع أن تقف إلى جواره ولا تتحرك لتبحث عن غوث!!

أمّ إسماعيل.. تسعى إلى المَرْوَة؟!

«فهَبَطتْ مِن الصَّفا..

«حتى إذا بلغتِ الواديَ.. رفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِها..

«ثم سَعَتْ سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ . .

«حتى جاوزَتِ الوادِيَ . .

«ثم أتَتِ المرْوَةَ . .

«فقامتْ عليْها، ونَظرَتْ: هل ترَى أحَداً؟

«فلم ترَ أحَداً!

«ففعلتْ ذلك سَبْعَ مَرَّاتٍ . . »!!

ماذا أقول . . وكيف القول في وحيدة وحدها، تتقلب من الصفا إلى المرْوَة، ومن المروة إلى الصفا . .

سبع مرّات، وهي تبكي، بل وهي عطشى، أشرفت على الموت جوعاً وعَطشاً . . ولكن منظر رضيعها الذي يحتضر أمامها، جعلها تنسى مصيبتها وموتها، ولا تفكر إلا في إنقاذ ابنها وفلذة كبدها!

وهذه لوحة مقدسة أخرى، أيها الفنانون . . يا من ملأتم الأرض بلوحات الجنس . . إن شئتم أن ترفعوا مستواكم عن مستوى البهائم!!

إنَّ الصفا والمَرْوَةَ مِن شَعائِرِ اللّهِ؟!

قال ابن عباس:

«قالَ النبيُّ ﷺ: فذلِكَ سَعْيُ الناسِ بينَهُمَا . . »؟!

لماذا جعل الله السعْي بين الصفا والمرْوة سبعاً من شعائر الحجّ إلى يوم القيامة!

تسجيلاً وتعظيماً، لذلك المشهد التجريدي الفذّ . .

مشهد الاستغاثة، ولا غَوْث!!

مشهد تقطعِ الأسباب، رغم الأخذ بكل الأسباب!

مشهد.. الغُربة، في الله!

مشهد الشهيد الرضيع إسماعيل!

اسمعْ.. إيل؟!

هل تدري: ما اسم الرضيع الجميل؟!

اسمه: «اسمَعْ.. إيل»!!

أي بالتعريب «إسماعيل»!!

اسمعْ..إيل!

اسمعْ.. يا الله..

استجب، يا ربِّ!!

فكيف كان ذلك؟!

«فلما أشرفَتْ على المروةِ، سمعَتْ صوْتاً..

«فقالَتْ: صَهْ، تريد نَفْسَها..

«ثم تسَمَّعَتْ، فسمِعَتْ أيضاً..

«فقالت: قدْ أسمعْتَ، إنْ كان عندكَ غُوَاثٌ..

«فإذا هي بالمَلَكِ، عندَ موضع زمزمَ»!!

وفي رواية:

«ثم سمعت صوتاً، فجعلت تدعو:

«اسمَعْ إيل»..

يعني اسمع يا الله..

«قدْ هَلَكتُ وهَلَكَ مَن معي..

«فإذا هي بجبريل.. عليه السلام..»!!

جِبريلُ.. يُفجِّرُ..زَمزَم؟!

«فقال لها: مَن أنتِ؟

«قالت: سرية إبراهيم، تركني وابني هاهنا..

«قال: إلى مَن وكلكما؟

«قالت: إلى الله تعالى..

«قال: وكلكما إلى كافٍ.

«ثم جاء بهما إلى موضع زمزمَ..

«فضرب بعقبه ففارت عيْناً..

«فلذلك يقال لزمزم.. رَكضَة جبريل.. عليه السلام»!!

أقول.. ومن تلك اللحظة، منذ نحو أربعة آلاف سنة، منذ فجَّر جبريل زمزم..

وهذه العَين المقدسة، تسري بمائها المبارك السلسبيل.

وسوف تبقى إلى يوم القيامة، آية من آيات الله تعالى:

﴿فيهِ آياتٌ بيّناتٌ﴾..

وتلك إحدى هذه الآيات الظاهرات للعيان..

مِن أجل مَن؟!

مِن أجل الرضيع الجميل، إسماعيل!!

يَرحمُ اللّهُ أُم إسماعيلَ؟!

«فلّما نبع الماء..

«أخذت هاجر شنّتها (قِرْبتها) وجعلت تستقي فيها تدخره، وهي تفور..

«فقال رسول الله ﷺ:

«يَرْحَمُ اللّهُ أُمَّ إسماعيلَ.. لوْلا أنها عَجِلَتْ.. لكانت زمزمُ عيناً مَعيناً..»!!

أي سائلاً جارياً على وجه الأرض..

أي لظلّت تفور وتتفجر إلى يوم القيامة!

أي أنّ اتجاه أم إسماعيل إلى ادخار الماء في القِرْبة، مخافة أن ينفد..

كان جزاؤه أن قلَّ الماء وكفَّ عن التفجّر..

وهذه بتلك!

غُلامٌ رائعٌ؟!

«وشَبَّ الغلامُ..

«وتعلمَ العربيةَ منهم.

«وأنفَسَهُمْ، وأعجَبَهُم حين شَبَّ..

«فلما أدْرَكَ، زَوَّجوهُ، امرأةً منهم..»!!

ها هو إسماعيل، فتًى رائعاً..

وماله ألاّ يكون رائعاً، وقد أخذ عن أبيه، جماله وجلاله وكماله؟!

وقد تربّى سَيِّداً..

فماء زمزم مِلْك له وحده وأُمّه.

لا حقّ لأحد فيه إلا بإذنهما، شرطت ذلك على النازلين أُمُّه حين

قالت لهم:

لا حقّ لكم في الماء.

وقد نشأ حُرّاً تمام الحرية.

وديان مكة أمامه، يجري فيها حيث يشاء، ثم يأوي إلى أُمه متى شاء..

حتى كان موضع إعجاب الجُرْهُميين جميعاً، رجالاً ونساءً..

«وأعجَبَهُم حين شَبَّ»!!

فارس؟!

كان إسماعيل فارساً..

استأنس الخيل، وقد كانت وحوشاً، تهيم في الجبال.

وكانت له جولات، يصيد فيها ما شاء الله، من صيد البرّ في الجبال.

وهذا أطيب عيش وأهنؤه.

يمتطي صهوة جواده، ويوغل في الجبال والصحراء من حول مكة، يلتمس صيْداً..

دليل ذلك حين سأل إبراهيم زوجة إسماعيل عنه فقالت:

ذَهَبَ يَصيدُ!!

وأما أنه كان فارساً.. فأدلته كثيرة..

منها ما ذكره ابن كثير:

«وذكر علماء النسب وأيام الناس..

«أنه أول من ركب الخيل..

«وكانت قبل ذلك وحوشاً.. فأنَسها وركبها»..

«عن عبد الله بن عمر.. أن رسول الله ﷺ.. قال:

«اتخذوا الخيل واعتقبوها.. فإنها ميراث أبيكم إسماعيل..»!!

ينطق بالفصحى وهو ابن أربع عشرة سنة؟!

«عن محمد بن عليّ بن الحسين..

«عن آبائه..

«عن النبيّ ﷺ.. أنه قال:

«أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل.. وهو ابن أربع عشرة سنة..»

المقام الأعلى.. الذَّبيح؟!

اللهم أعِنّي.. فإن الأمر فوق طاقتي..

نحن الآن أمام أعظم مشهد من مشاهد إسماعيل.. عليه السلام..

كان الغلام في الثالثة عشرة، في أجمل سِنّ يكون فيه الغلمان..

قوة، شباب، فتوة، جمال، تفجُّر، حيوية..

وجاء إبراهيم، يستطلع أحوال أُم إسماعيل.. وأحوال ابنه اسماعيل..

جاء الخليل فوجد إسماعيل على أحسن حال يرجوها الوالد لولده في هذه السِنّ المبكرة..

وذهبا معاً يتجولان في بقاع مكة..

وفاجأ إبراهيمُ إسماعيل بقوله:

﴿يا بُنيّ..

﴿إنّي أرَى في المنامِ..

﴿أني أذبَحُكَ. .

﴿فانظُرْ. . ماذا ترَى؟!.﴾

ونظر الغلام الجميل الجليل إلى أبيه وقال:

﴿يا أبتِ. .

﴿افعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾. .

وبكى إبراهيم!!

وبكى إسماعيل!!

ثم زاد الغلام أباه سكينة. . وقال:

﴿سَتَجِدُني إن شَاءَ اللَّهُ منَ الصَّابرينَ.﴾!!

مشهد؟ ﴿فلما أسلما﴾؟!

«رأى إبراهيم. . عليه السلام. . في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا. .

وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً:

﴿رؤيا الأنبياء وحي». .

«وهو إسماعيل عليه السلام. . لأنه أول من وُلد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل، وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل. . لأنه أول ولده وبِكْره. .

«وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله.

«في أن يذبح هذا الولد العزيز، الذي جاءه على كِبَر.

«وقد طعن في السن، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر. . ووادٍ ليس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع. . ولا ضرع. .

«فامتثل أمر الله في ذلك.. وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه.. فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً.. ورزقهما من حيث لا يحتسبان..

«ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه..

«وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره..

«أجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلى طاعته..

«ثم عرض ذلك على ولده، ليكون أطيب لقلبه.. وأهون عليه.. من أن يأخذه قسراً.. ويذبحه قهراً:

﴿قال: يا بُني إني أرَى في المنامِ أنّي أذبَحُكَ فانظُرْ ماذا ترَى؟﴾..

«فبادر الغلام الحليم.. سر والده الخليل إبراهيم.. فقال:

﴿يَا أبَتِ.. افعَلْ مَا تُؤمَرُ.. ستَجِدُني إن شَاءَ اللّهُ مِنَ الصّابرينَ.﴾؟!!

«وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد..

«قال الله تعالى:

﴿فلَمّا أسْلمَا.. وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ.﴾

«قيل: أسلما: أي استسلما لأمر الله.. وعزم على ذلك..

«وتَلهُ لِلجَبينِ» أي ألقاه على وجهه..

«قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه..

«وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض..

«وأسلما» أي سمّى إبراهيم وكبّر.. وتشهد الولد للموت!!

«قال السدي وغيره: أمَرّ السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً..

«ويقال: جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس، والله أعلم».

مشهد.. ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾؟

«فعند ذلك نودي من الله عز وجل:

﴿أن يا إبراهيم. قد صدّقت الرؤيا﴾..

«أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان.. كما سمحتَ ببدنك للنيران.. وكما مالك مبذول للضيفان!

«ولهذا قال تعالى:

﴿إنَّ هذا لهُوَ البلاءُ المبينُ﴾..

أي الاختبار الظاهر البين..

«وقوله:

﴿وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عظِيمٍ﴾..

أي وجعلنا فداء ذبح ولده.. ما يسره الله تعالى له من العوض عنه.

«والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن.. رآه مربوطاً بسمرة في ثبير..

«وعن ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه..

«قال مجاهد: فذبحه بمِنى..»

أيهما كان أعظم.. إبراهيم أم إسماعيل؟!

والآن نطرح هذا السؤال الخطير:

في هذا البلاء المبين.. أي النبيَّين هو أعظم.. إبراهيم أم إسماعيل.. لذابح أم الذبيح؟!

لا تستطيع جواباً..

فإن قال قائل: إبراهيم أعظم.. لأنه في بلاءين اثنين.. بلاء الوالد يذبح ولده، وبلاء مباشرته الذبح بنفسه!!

فإن قائلاً يمكن أن يقول: بل إسماعيل هو أعظم.. فإن إسلام إسماعيل نفسه باختياره راضياً أن يُذْبح.. شيء فوق طاقة البَشر!!

ولعل سداد القول أن نقول:

هما سواء..

تجد ذلك مكنوناً في قوله:

﴿فلمّا أسْلمَا﴾..

يسَجِّل لهما.. كليهما.. الإسلام لأمر الله..

وفي أُفُق أعلى نقول:

كانت الحقيقة الإبراهيمية.. تتلألأ في الحقيقة الإسماعيلية آنذاك..

إبراهيم مرآة إسماعيل..

وإسماعيل مرآة إبراهيم..

فالأمر كان بلاء لكليهما على السواء..

حَمَل كلٌّ منهما نصيبه منه!!

إشعاعات المشهد المقدّس؟!

وتشعشعت من ذلك المشهد.. إشعاعات.. ما زالت تتشعشع إلى يوم

القيامة . .

فجعل الله

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ . .

منسكاً إلى يوم القيامة . .

ملايين من الذبائح تنحر بمِنى . . كل عام في الحجيج، تكريماً لذكرى . . ذبح إسماعيل!!

وملايين من الأضاحي . . تُنحر في عيد الأضحى كل عام، إحياء لتلك الذكرى . .

«سُنَّة أبيكم إبراهيم»!!

وسَنَّ رسول الله ﷺ . . أن يشهد المضحي ذبح أضحيته يوم العيد . . وأن يباشر ذلك بنفسه، ليذكر ما كان من إضجاع إبراهيم لإسماعيل ليذبحه!!

وتشعشعت نسمات إسماعيل . . ترفرف فوق ساحة مِنى، وهي تموج بملايين من الحجيج، يُلبُّون وينحرون، ويذكرون!!

غلامٌ.. ليس كمثله غُلام؟!

وعلى هذا، يمكن أن يُقال:

لو وُضِع غلمان العالم في كفة . . وإسماعيل في كفة . . لرجح إسماعيل!!

لماذا؟!

لأنّ ما كان من إسلامه نفسه لأبيه يذبحه، امتثالاً لأمر ربّه . .

وتطاوعه له . . ورضاه . .

الأب يقول: باسم الله. الله أكبر..

وإسماعيل يقول: أشهد أن لا إله إلا الله..

وهوَى إبراهيم بالسكين.. يذبحه!!!

هذه اللحظة المقدسة..

لحظة هُوي السكين في عُنُق إسماعيل، تحتز شرايينه..

هذه اللحظة، تساوي الدهر كله طولاً وعَرْضاً..

لحظة بلغ فيها إبراهيم.. أعلى مقام، عند ربه..

وبلغ فيها إسماعيل.. أعلى ثناء، عند ربه..

ما كان إبراهيم يدري أن الله سيفدي إسماعيل..

وإنما هو منطلق إلى ذبحه لا يتردد..

وما كان إسماعيل يدري أن الله سيفديه.. وإنما هو أسلم نفسه ليُذبَح!

سلامٌ على إبراهيم!

سلامٌ على إسماعيل!

أرني غلاماً في العالم، يُسَلِّم إسلام إسماعيل، أن يُذبح بيد أبيه؟!

فإن قيل: لا يوجد مِثْل هذا الغلام..

قلنا: إذن.. إسماعيل.. غُلامٌ.. ليس كمِثله غلام!

أثر البلاء المبين في شخصية إسماعيل؟

بلغ الفتى إسماعيل، في تجربته تلك، أعلى مقامات الإسلام لله، والتجرد لله، والبذل في الله..

وماذا يمكن أن يقدمه إنسان في سبيل الله.. هو أعظم من تقديم دمه، راضياً مرضياً؟!

وأن يسلم نفسه طائعاً ليُذبح؟!

فإن قيل هو شهيد..

قلنا: الشهيد، قد يُقتل أو يَقتل.. فهو يتقدم للموت، وعنده فرصة الدفاع عن النفس..

ولكن إسماعيل.. يستسلم للذبح.. ولا فرصة هناك ليقاوم ذبحه..

فشتان بين مقام ومقام!

إنه فوق الشهداء.. إليه يتطلع الشهداء..

إنه ذبيح الله!!

يتزوج؟

«فلما أدْرَكَ.. زَوّجُوهُ.. امرأةً منهم»..

عاد إسماعيل، شاكراً ربه أن فداه من الذبح..

وبلغ مبلغ الشباب، وتزوج امرأة من الجُرْهُميين، الذين نزلوا بجوار زمزم..

وماتت أُمُّ إسماعيل؟

كان إسماعيل في سن الشباب، يذهب إلى ما حول مكة يلتمس صيداً..

ويعود إلى أُمه، وزوجه، سعيداً، هانئاً..

إلا أن الأُمّ ماتت في هذه الأثناء!!

يُطلِّق.. الزوجة المتمردة!

ها هنا نلمس صفة عليا من صفات النبيّ إسماعيل.. عليه السلام..

قال له أبوه: غَيِّرْ عتبة بابك..

فعَلم على الفور، أن أباه لا يرضى تلك الزوجة المتمردة له زوجاً..

فقال لها: إلحقي بأهلِك..

كما أطاع أباه.. أن يُذبح..

أطاعه هنا، أن يُطلِّق..

لأن الآمر نبي عظيم.. لا يأمر إلا بخير!!

يتزوج أخرى شاكرة؟

وجاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ مرة أخرى، وكان إسماعيل ـ عليه السلام ـ قد تزوج أخرى..

فأمره أن يُثَبِّتَ عتبة بابه..

فعلم إسماعيل، أن أباه يأمره بإمساك هذه الزوجة، لأنها شاكرة لربها.

فازداد لها حباً، وتثبيتاً!!

ومن هذه الشاكرة.. كانت ذرية إسماعيل ـ عليه السلام ـ.

فكأن إبراهيم لم يرض لابنه أن تكون ذريته إلا من مؤمنة شاكرة..

«وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجُرْهمي..

«فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً..».

في سن الثلاثين..

«ثمَّ لَبث عنهم ما شاء الله..

«ثم جاء بعد ذلك

«وإسماعيل يَبري له نَبلاً، تحت دوحة قريباً مِن زَمزمَ..

«فلما رآه، قام إليهِ..

«فَصنعا كما يَصنعُ الوالدُ بالوَلَدِ، والوَلَد بالوالدِ..

«ثمَّ قال: يا إسماعيلُ، إنَّ الله أمَرَني بأمرٍ..

«قال: فاصنع ما أمَرَكَ ربُّك..

«قال: وتعينني؟

«قال: وأعينك.

«قال: فإنّ الله أمَرني أن ابنيَ.. ها هنا بَيْتاً.

«وأشار إلى أكمةٍ مرْتَفِعَةٍ على ما حَوْلَها..

«قال: فعند ذلِكَ، رفعا القواعِدَ مِنَ البيتِ..

«فجعل إسماعيل يَأتِي بالحجارة..

«وإبراهيم يَبني..

«حتى إذا ارْتَفع البناء..

«جاء بهذا الحجرِ، فوَضعه له..

«فقامَ عليهِ..

«وهُو يَبني..

«وإسماعيل يناوِلهُ الحِجارةَ..

«وهما يَقولانِ:

﴿ربَّنا تَقبّل مِنَّا إنّكَ أنتَ السمِيعُ العليمُ..﴾

«قال: فجعلا يبنيان، حتى يَدورا حول البيت.. وهما يقولان:

﴿ربَّنا تقَبّلْ مِنّا.. إنّكَ أنت السميعُ العليمُ﴾!!

وشارك إسماعيل في بناء البيت.. وأعان أباه الخليل في ذلك العمل الجليل!!

ماذا كانا يقولان؟

كانا يقولان:

﴿ربَّنا تقبّلْ منّا، إنّكَ أنت السميعُ العليمُ﴾.

ويقولان:

﴿ربَّنا واجعلْنَا مسلمَينِ لكَ، ومِنْ ذُرّيَّتِنا أُمّةً مُسلمةً لكَ، وأرِنا مناسِكَنا، وتُبْ عَلينا، إنّكَ أنتَ التوّابُ الرحيمُ﴾..

ويقولان:

﴿ربّنا وابعَثْ فيهمْ رسولاً منهمْ، يتلُو عليهمْ أياتِكَ، ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ، ويُزَكّيهِمْ، إنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾..

هل استجيبت دعواتهما؟

نعم.. استجاب الله سبحانه لهما، في جميع دعائهما!!

وهُما يبنيان بيت الله.. أشرف بيت في الأرض..

قالا: ربّنا تَقَبَّلْ مِنّا..

فتقَبَّلَ الله منهما عملهما أحسن القبول..

وأي قبول هو أعظم من تقديس البيت الحرام إلى أن تقوم الساعة؟!

فلا بيت في الأرض، كان أو يكون، هو أشرف، أو أعظم، أو أحبّ

إلى الله. . من الكعبة البيت الحرام!

وأي تعظيم هو أعظم من بيت جعله الله، قِبلة لكل من صَلّى إلى يوم القيامة؟!

فانظر كم يبلغ أجرهما ـ عليهما السلام ـ المترتب على بناء البيت العتيق؟!

منذ نحو أربعة آلاف سنة، كان ذلك العمل العظيم.

وكان إسماعيل في الثلاثين من عمره. .

منذ ذلك الحين، كم مليون حاجّ حَجُّوا، وكم مليون معتمر اعتمروا، وكم مليون طائف طافوا، وقائم قاموا، وكم مليون من الرُّكَّع السُّجُود؟!

بل ما هو أعجب من ذلك. . منذ فرض الله التوجه إلى الكعبة، في عهد رسول الله ﷺ. .

كم آلاف الملايين، يتوجهون في كل صلاة إلى البيت العتيق، الذي بناه إبراهيم وإسماعيل؟!

إن الذي يحدث أنه ما من لحظة من ليل أو نهار إلا وهناك متوجهون ومتوجهات إلى الكعبة!

عمل ممدود، على طول الزمان والمكان والإنسان، عمل بناء البيت!

فأي قبول هو أعظم من ذلك القبول؟

وإلى أن تقوم الساعة، سيبقى المسلمون والمسلمات أبداً، إلى البيت يتوجهون!

فأي عطاء هو أعظم من عطائهما، حين أمرهما ببناء بيته المحرّم؟!

﴿ربّنا واجْعَلنا مُسْلمَينِ لكَ﴾؟!

هل استجيبت هذه؟!

نعم.. وأي إسلام لله، هو أكبر من إسلام إبراهيم وإسماعيل؟

﴿ومِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ﴾؟!

واستجيبت هذه الأخرى..

وما هذه الأمة الإسلامية، طولاً وعَرْضاً، إلا استجابة دعوتهما!

﴿وَأرِنا مَنَاسِكنا﴾؟!

ولقد شرع لهم من الدين ما وصاهم به!

﴿وَتُبْ عَلينا﴾؟!

ولقد تاب الله عليهما، فرفع درجاتهما رفعاً لم يبلغه أحد سواهما!

﴿ربّنا وابعَثْ فيهم رسولاً منهم﴾؟!

استجيبت أعظم الاستجابة.

فبعث الله فيهم، رسولاً، أعظم الرسل، عربياً منهم، بلسانهم!

﴿يَتلُو عليهِمْ آياتِكَ﴾؟!

هو هذا القرآن العظيم، بلسان عربي مبين!

﴿وَيُعَلمُهُمُ الكتابَ﴾؟!

وقد علَّم ﷺ.. الكتاب.. خير تعليم، وبيَّنه للناس خير بيان!

﴿والحِكمَةَ﴾؟!

هي سُنَّته الشريفة..

وهي أعلى ما يتصور من الحكمة!

﴿ويُزَكِّيهم﴾؟!

ويُرَقّيهم.. ويَرقى بهم في مدراج الكمالات رُقِيّاً عظيماً!!.

وأخيراً، أرى البحر عميقاً إلى ما لا نهاية..

البانيان.. الخليل والذبيح..

والبناء.. بيت الله الأول في الأرض..

والدعوات، تتموج من فؤادهما، خالصة على أعلى مستوى من الإخلاص..

لحظات يا لها من لحظات!

سويعات يا لها من سويعات!

سويعات بُنيَ فيها البيت..

لقد طُويَ الخيرُ كله، في تلك اللحظات المباركات!

عناصر شخصيته!

حين يسجل القرآن العظيم، لنبيٍّ من الإنبياء، صفة من الصفات العليا، إنما يريد أن يرشدنا إلى مواضع الامتياز من ذلك النبيّ.

فلننظر الآن، ماذا سجّل.. لإسماعيل عليه السلام؟

حليم!

قال تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

إذن أبرز صفات إسماعيل، أو الصفة العليا الغالبة من شخصيته صفة الحِلْم..

والحِلْم من أعلى الصفات العُليا، ولا يتيسر إلاّ للشخصية التي أوتيت من الأخلاق حظًا عظيماً!

مِنَ الصابرينَ!

قال تعالى:

﴿... ستجدُني إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾..

إذن صفة الصبر، من الصفات العليا في إسماعيل..

وأي صبر هو أعظم من صبره على الذّبح؟!

﴿فلمَّا اسْلَما﴾!

صفة إسلام الوجه لله، والاستسلام التام لله..

وقد برزت هذه الصفة العليا، من إسماعيل، بروزاً تاماً، عند إسلامه نفسه لله، غاية الإسلام..

﴿فَلَمَّا أسْلَمَا.. وتلَّهُ لِلجبِينِ﴾.

وأي إسلام هو أعلى من ذاك؟

احتمال ثِقل البلاء!

قال تعالى:

﴿إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ﴾!!

المُبين: المُظهِر..

المُظهر لماذا؟

لعظمة حقيقة إسماعيل . .

إنما وضعه في هذا البلاء، ليظهر للناس، وللخَلْق جميعاً . .

مَن هو إسماعيل؟ وما هي حقيقته؟

أمَرْنا أباه أن يذبحه . . فأسلم عُنُقَه لأبيه، راضياً مُسْلماً!

فهل في الناس مِثْلُ إسماعيلَ؟

ظهر للعيان، الآن . . . وإلى يوم القيامة، عظمة شخصية إسماعيل . .

أما وقد نجح في أشقّ بلاء يُبتلى به بَشرٌ، فلنَفْدِيَنه فوراً، ولنُعفِينه مِنَ الذبح . .

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾!!

ثم ماذا؟

ثم لنجعَلَنهُ اغرودة يغردها كل إنسان إلى يوم القيامة . .

ومَثَلاً أعلى، للفداء والتضحية، والإسلام لله.

وقد كان، جَعَل الله مِنًى منسكاً من مناسك الحجّ إلى أن تقوم الساعة . . .

وجعل ذبح الأضاحي شعيرة من شعائر الإسلام في عيد الأضحى . .

وجعل ما كان من ذَبْح إسماعيل . . ونجاته من الذبح، بعد أن تحقق الشروع في ذبحه، جعل ذلك أنشودة تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل . . في إكبار وإعجاب . .

فما ذكرها أحد . . رجلاً أو امرأة إلا فاضت عينه من الدمع، إجلالاً لإسماعيل . . وإكباراً لإبراهيم!

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾!!

جعلهما أنشودة مقدسة، يتناقلها كل جيل ويُلقِّنها لمن بعده!

اكتسب إسماعيل شهرة، على مستوى البشرية كلها..

لم يَسْعَ إليها، وحاشاه.. ولكن الله رفع ذكره، جزاء إخلاصه وإسلامه لِلّه..

﴿كَذَٰلِكَ نجزي الْمُحْسِنِينَ﴾!!

صادقَ الوَعد!

وأيّ وَعد هذا الذي صَدَقَ فيه إسماعيل؟!

إنه وَعْد، يكلفه حياته!

ولكن صفة صِدْق الوَعد.. وحتمية الوفاء بما وَعَد، تُحتِّم عليه أن يفعل ما وَعَد!

إن الأنبياء، شيء لا ندركه نحن الأغبياء.. فما مِنّا إلا وهو غبيٌّ بالنسبة إلى أي نبيّ!!

انظر إليه، وهو في ثلاث عشرة من عُمُره الشريف..

يقول لأبيه:

﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾!!

هذا وَعد.. ولكنّ الوفاء به، يحتم أن يُذْبَح!

فحتمت الصفة العُليا على إسماعيل: الوفاء بوعده..

فخرج مع أبيه.. إلى مِنى.. واضطجَعَ إسماعيلُ فيها ليُذْبح!

وسجّلها كتاب الله العظيم، له تسجيلاً:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ،

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ﴾،

إنها صفة عُليا في شخصيته، صفة صِدْق الوَعد..

ومِن هنا نعلم: مَن هم الأنبياء؟!

رَسولاً نبياً..

قال تعالى:

﴿وَكَانَ رَسولاً نَبِيًّا﴾

صفتان عظيمتان.. جميلتان.. جليلتان، من صفات إسماعيل.. عليه السلام..

كان رسولاً..

وكان نبياً!

حمل الرسالة إلى قومه، ومَن حوله..

وكان نبياً يُوحَى إليه!

وقد رأينا إرهاصات نبوته، حين فَجّر الله من أجلهِ زمزم!

وحين ابتلاه.. فأسلمَ ليُذْبَح...

فلمّا جاز ووفّى بما أُمِر..

جعله الله رسولاً إلى الناس، لأنه أرقى منهم..

وجعله نبياً يُوحَى إليه، لأنه أهلٌ لذلك!

تجد ذلك مكنوناً في آية واحدة:

﴿وَاذْكُر فِي الكتابِ إِسْمَاعِيلَ.. إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ.. وكانَ رسولاً نبيّاً﴾!!

كأنه يُراد أن يُقال: استحق الرسالة والنبوة، لأنه كان صادق الوعد.. لأنه ثَبت أنه على أعلى ما يمكن أن يكون من الصفات العُليا!

صفة دعوة الناس إلى الله؟

قال تعالى:

﴿وكانَ يَأمُرُ أهلَهُ بالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ..﴾!!

كان يدعو الناس إلى الله، ويبدأ في ذلك بأهله، بزوجه.. وأولاده، وأحفاده.

ولقد عاش إسماعيل بعد بناء الكعبة أكثر من مائة عام..

فقد شارك في بناء الكعبة وهو في الثلاثين..

ومات وهو ابن مائة وسبع وثلاثين سنة..

شهد فيها بنيه الاثني عشر يتزوجون، ويتناسلون، ويتكاثرون وينتشرون..

ومن وراء أولاده شهد أحفاده، بل أبناء أحفاده..

كل هؤلاء كوّنوا أُمّة مسلمة.. تأتمر بأمر أبيهم إسماعيل..

كان يأمر هؤلاء جميعاً بأداء الصلاة، وإخراج الزكاة!

وهذا من جميل عطاء الله لنبيه إسماعيل..

كما قَدَّم بَدَنه للذبح.. الذي معناه انقراضه من هذه الدنيا..

جازاه الله إحساناً بإحسان..

فأعفاه من الذبح، وفداه، وبارك فيه وفي ذريته..

وأشهده من نسله في حياته عدداً وفيراً.. يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً.. ويؤدون الصلاة، ويُؤتون الزكاة!

فكيف لو شهد إسماعيل، امتداد الأمة من ذريته.

أمة العرب.. وقد بلغت مئات الملايين؟

وكيف إذا شهد بعد مئات السنين.. محمداً ..ﷺ..وقد بُعِثَ فيهم، بأعظم دين وأخلد رسالة؟

وقد تابعه مليار مسلم ومسلمة.. في شتى بقاع الأرض..

كما دعا الخليل وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت:

﴿رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لكَ ومِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ وَأرِنا مَنَاسِكنا وتُبْ عَلينا إنَّكَ أنت التَّوَّابُ الرَّحيمُ. رَبَّنا وابعَثْ فيهم رَسُولاً مِّنهُم يَتْلُوا عَلَيهم آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مرضِيّاً!

قال تعالى:

﴿وكانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾!!

طوبى لإسماعيل!

ثم طوبى لإسماعيل!

امتاز عند ربه بذلك المقام..

«وكانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا»!

وللأنبياء عند ربهم، مقامات لا يعلمها إلا هو سبحانه..

فكم يبلغ هذا المقام عند الله؟

شيء فوق إدراك عقولنا..

جزاء إحسانه.. وإخلاصه، وإسلامه.. وصِدْقه.. وفوق ذلك!

من الذين أنعم اللّه عليهم..

يُثني الله تبارك وتعالى، على رسله وأنبيائه الذين ذكرهم في سورة مريم.

فيقول عزّ ثناؤه:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أنعمَ اللَّهُ عَلَيهم من النَّبِيِّين..

﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ..

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ..

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وإسْرَائِيلَ..

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنَا..

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ..

﴿خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً﴾!!

وإسماعيل - عليه السلام - من هؤلاء العظماء، حيث قد ذكره قبل هذه الآية صريحاً بالاسم:

﴿واذْكُر في الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾..

إلى آخر الآيات..

إذن الآية تتحدث عن صفات عليا بارزة من شخصيته، في نفس الوقت الذي تسجل فيه هذه الصفات لغيره من الأنبياء عليهم السلام.

وأولى هذه الصفات، أنه - عليه السلام - من الذين أنعم الله عليهم من النبيين..

﴿أولَئِكَ الَّذِينَ أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّين..﴾!!

مقام، يا له من مقام؟!

سيدي . . . إسماعيل يشمله هذا الثناء!

«أولئكَ»؟ أولئك العظماء، الذين بلغوا من العظمة أقصاها.

«الذين أنعَمَ اللّهُ عليهم» وأي إنعام هو أعظم من إنعام النبوة؟!

«مِنَ النَّبِيِّينَ» ويدخل فيهم إسماعيل عليه السلام!

ثم ماذا من الصفات العُلى التي تُستنبط من ثناء الله تعالى عليهم؟!

هدَينا.. واجتَبينا!

هَدَاهُ . . واجتباه!

كما هَدَى أباه الخليل، عليه السلام، واجتباه . .

والوَلَد سِرّ أبيه!

﴿وَمِمَّن هَدَيْنا واجتَبَيْنا . .﴾!!

أعظم صفاته العليا..

ها هي، أعظم صفات إسماعيل، عليه السلام، العُليا، وكل صفاته عُلى!

﴿إذَا تُتلَى عَلَيهِم آيَاتُ الرَّحمَنِ . .

﴿خَرّوا سُجّداً وبُكِيّاً﴾!!

صفة عامة، تنتظم أولئك النبيين أجمعين . .

وكان إسماعيل من أولئك العظماء . .

إذا تُتلى عليه آيات الرحمن، خرّ ساجداً وباكياً . .

قلبه، قلب نبيٍّ كريم . .

ما مَرّت عليه آية من آيات ربه، إلا ذكّرته فوراً، بربه، وجماله،

وجلاله، وقدرته..

فخرّ لفوره، ساجداً.

وخرّ لفوره، باكياً..

ومن حيث أن النبيّ، تنام عيناه، ولا ينام قلبه.

إذن فإسماعيل، دائماً في حالِ ذكرٍ مع ربه..

لا يغيب قلبه لحظة، عن ربه..

إذن هو دائماً، ساجدٌ، باكٍ..

قلبه، ساجد، باكٍ..

وإنما بكاء العيون، ترجمان لبكاء القلوب.

كما أن سجود الأعضاء، ترجمان لسجود القلوب..

كان حنيفاً..

كان إسماعيل.. كما كان أبوه إبراهيم.. عليه السلام..

كان إبراهيم حنيفاً..

إذن كان إسماعيل كذلك حنيفاً..

لأن إسماعيل وَلَدُ إبراهيم البكْر.. وأوَّلُ نبيٍّ في وَلَدَيه.. إسماعيل وإسحاق..

قال تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصرانِيّاً..

﴿وَلكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسلِماً..

﴿وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾!!

ولكن ما هي هذه الحنيفية.. التي كان عليها إبراهيم.. ثم كان عليها إسماعيل؟

تغيب هذه الحقيقة عن كثير من المؤمنين والمؤمنات.. والمسلمين والمسلمات..

ورغم أنها من أعظم مفاتيح التوحيد.. إلا أنها غير واضحة في مفاهيم أكثر الناس..

ما معنى قوله تعالى:

﴿حَنِيفاً﴾؟!

معناه؟؟

حنيفاً.. أي متوجهاً إلى الله رأساً.. بلا وسائط..

وهذا هو العمود الفقري من التوحيد..

وهو أقصر طريق للتوجه إلى الله.

وأيسر طريق..

تقول: يا ربّ..

يقول لك: لَبّيْكَ عبدي..

والحنيفية هي مِلّة إبراهيم..

وهي في نفس الوقت مِلة إسماعيل..

وهي مِلة الأنبياء مِنْ بَعْدهم..

﴿قُلْ إنَّنِي هَدَانِي ربِّي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ دِيناً قِيمَاً مِلَّةَ إبراهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشرِكِينَ﴾

﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِين﴾

﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾!!

دِيناً قيماً؟

دِيناً.. مستقيماً..

ما هو هذا الدين المستقيم؟

مِلة إبراهيم؟

ما هي مِلة إبراهيم؟

حَنيفاً؟!

ما هي الحنيفية؟

هي التوجه المباشر.. التوجه رأساً إلى الله..

وَجَهْتُ وَجهيَ لِلَّذي فَطَرَ السماوات والأرض.. حنيفاً.. وما أنا من المشركين..

ولقد كان إسماعيل حنيفاً..

أخذ الحنيفية عن إمام الحنيفية.. أبيه إبراهيم.. عليهما السلام..

حتى إذا كان مِسْك الختام.. وشرفت البشرية ببعثة خاتم النبيين ... ﷺ..

أعلن رسول الله ... ﷺ.. الحنيفية..

فقال النبيّ ﷺ..

«أحبُّ الدينِ إلى اللّهِ..

«الحنيفيّةُ السّمحَةُ».

[أخرجه البخاريّ]

الفهـــرس

ماذا في هذا الكتاب !!

فيه ما لا عينٌ رأتْ .. ولا أذُنٌ سمِعَتْ .. ولا خطَرَ على قلْبِ بشَر ؟!

فيه « حياة اسماعيل » !

وما أدراك ما اسماعيل ؟

﴿ يا بُنيَّ اني أرَى في المَنامِ أني أذْبَحكَ .. فانظُرْ مــاذَا ترَى ؟

﴿ قالَ .. يا أَبتِ .. افعَلْ ما تُؤْمَرُ ستَجِدُني ان شاءَ اللهُ مِنَ الصّابرِينَ . ﴾ !!

﴿ واذكُر في الكتابِ اسماعيلَ ..

﴿ إنّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ ..

﴿ وكانَ رسولاً نبِيّاً ﴾ !!